القسم الأول

تراجم مصرية

obeikandl.com

obeikandl.com

كليوباترة

صورة تمثال لها فى متحف الفن الحديث بروما

كليوباترة اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الأساطير من ألوان الفتنة بهاء باهراً تضاءلت إلى جانبه أسماء الزهرة وأفروديت وسميراميس وسائر آلهة الجمال ، وهاتاسو ونيفرت وسائر الملكات ، بل تضاءلت إلى جانبه أسماء الملوك ، والشعراء ، والكتاب . فهى ليست جميلة وكفى ، وليست مليكة وكفى ، وليست ساحرة الحديث وكفى ، وليست ذكية وكفى ، وليست أديبة وكفى ، بل هى ذلك كله وهى أكثر من ذلك كله ، هى الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الإرادة فى أسمى ما تصوره معانى هذه العبارات ، وهى مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصوراً طويلة كانت مصر فيها مهبط وحى الحكمة والشعر والجمال . لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباترة وأن يتغنى بحياتها وأن يصور هذه الحياة على النحو الذى يحب أن تكون . ولذلك كان ما أريق من مداد

وما سود من صحف فى الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية إلاهة أو ملكة أخرى أن تفخر به .

وكان حظ كليوباترة أن ولدت بالإسكندرية فى عصر بلغ فيه نجم روما غاية سموه ، وبدأت مصر فيه دور الترف الذى يسبق الانحلال . وكانت الإسكندرية فى ذلك الحين عاصمة الدنيا ومستقر كل ما فى الحياة من متاع ونعمة . فكان الناس يتكلمون فيها كل اللغات المعروفة ، كما كانت الفلسفة فيها ناضرة مستقرة بكل نظرياتها المتضاربة استقرار جوار حسن ليس فيه شىء من الكفاح أو القسوة . فإلى جانب الأبيقورية الناظرة للحياة نظرة سرور بها وحرص عليها واستمتاع بكل ما فيها ، المبتسمة سخراً منها وازدراء لها وإشفاقاً على أهلها ، كان الرواقيون ينادون بالزهد فى الحياة والأخذ بأسباب التقشف واحتقار عرض الدنيا الزائل ، وبلغ بعضهم من ذلك حد الدعوة إلى تعذيب الجسد لطهارة الروح . وإلى جانب مكتبة الإسكندرية العامرة الحاوية ثمانمائة ألف مجلد فيها ما شئت من ألوان الحكمة والعلم والتفكير والفن ، كانت تقوم المراقص والملاهى ، يهرع الناس إليها لينسوا أنفسهم فى لهوها وليتمكنوا فى ملذاتها وليمتعوا أبصارهم بجمال ساحراتها الراقصات والمغنيات .

وكانت هذه الحياة المتفجرة بينابيع الحكمة واللهو جميعاً تموج فى محيط بلغ كمال العمارة التى قامت خلال ثلثمائة سنة كانت منذ أنشأ الإسكندر الأكبر المدينة عام ثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد سنى نشاط وعظمة لمصر وفلسفتها وعمارتها . فقد اتصل ما بين هذا الثغر البديع الموقع فى امتداده على شاطئ بحر الروم وجزيرة فاروس القائمة وسط البحر ترقب غدواته وروحاته بجسر هفتا البالغ غاية العظمة والجمال ، والذى انتهى بالجزيرة إلى أن أصبحت جزءاً من المدينة . واتصل بالنيل بقناة كانوب (ترعة المحمودية الحاضرة) التى لم تكن مجرد مجرى للماء والتجارة ، بل كانت كذلك مجرى للمسرة والنعيم بما أحاط بها على مدى طولها من حدائق وأعناب ونخيل

قامت فى أثنائها منازل اللهو ودور المتاع تحيط بها جنات فيحاء جمعت كل أسباب النعمة من زهر عطر وفاكهة نضرة . فأما أهل هذه المدينة فكانوا أهل ذكاء وظرف وكانوا حريصين على المتاع بكل ما فى حياة مدينتهم الزاهرة متاعاً عريضاً ، يتهالكون فى ذلك على اللهو وعلى المسرة فى مختلف صورهما وألوانهما . فكما كانت فراعنتها تفتن فى الترف بما يعجز خيال كل مترف فى عصرنا الحاضر ، كان الشعب ، رجالا ونساء ، منغمساً فى حمأة اللذائذ الدنيا مسلماً نفسه إليها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . لكنهم كانوا مع ذلك أميل للاستخفاف بالحياة وما فيها ولو بلغوا من الحياة أعظم مكان . وأى استخفاف أشد من استخفافهم بالفراعنة الآلهة حتى لقد دعوا جد كليوباترة البطين ودعوا أباها بطليموس أوليتا أى العازف بالناى .

وكانت كليوباترة شديدة الولع منذ صباها بالتجول فى أنحاء الإسكندرية والوقوف على كل ما فى هذا العالم العامر بكل ما فى العالم من حياة وحضارة . وفى تجوالها هذا عرفت وتعلمت كثيراً عرفت كل ما وقعت عليه عيناها الواسعتان الجذاب دعجها الساحر ، وكل ما أحاط به ذهنها الحاد . وتعلمت اللغات والآداب وطرائق التعبير العزيزة على مدرسة الإسكندرية يومئذ ، والتى تمتاز بالتورية والرقة والقوة . وكان لها بالكتب ولع وغرام ليس مثلهما ولع ولا غرام . وكانت أميل للشعر وأشد لذلك تفضيلا للأوديسى على التوراة وعلى كثير من كتب الحكمة .

وفى هذا الصبا الناعم عرفت وارثة عرش بطليموس الثانى عشر من ألوان الترف وتذوقت من صوره ما لم يعرفه ولم يتذوقه غيرها ممن لم يؤت ذكاءها ولا علمها باللغات والآداب . فقد كان أبوها الفرعون العازف بالناى المستغرق فى ملاذ الحياة بما استحق معه لقب إله الخمر ديونيزوس يدللها بكل ما يلهمه ملك مترف معجب بابنة ليس لها فى بنات حواء مثيل . فكان يطوف وإياها مدائن مصر ويركب وإياها النيل من الإسكندرية إلى طيبة ذات الأبواب المائة يقفان عندما يحلو لها الوقوف

عنده من المدائن العامرة بآثار مصر القديمة . فإذا تركا طيبة إلى أنس الوجود أقاما فيه من الحفلات ما يجل عن الوصف ، وما ليس له مثال إلا فيما أقامته كليوباترة من المآدب لأنطونيو حين غرامه بها ودلها عليه .

على أن الصبية لم تبق فى هذا النعيم الملكى طويلا ، وإن كانت لم تحرم منه إلا لتعود إليه فتكون به أكثر متاعاً . ذلك أن أباها طرد من مصر فالتجأ إلى سوريا حتى عاد مع جند الرومان الذين أوفدهم بومبى . وكان أنطونيو على رأس فرقة من هذا الجند تحت قيادة جاليوس . فذهب مع بطليموس الطريد حتى دخل وإياه الإسكندرية دخول الظافر .

وكانت كليوباترة يومئذ فى الرابعة عشرة من عمرها . فلما أيقنت بانتصار أبيها وبعودته إلى مدينة النعيم اجترأت على اختلاس شارة الملك من برنيس زوج أركايلوس خصم أبيها ، وجلست مع خدينانها فى شرفة القصر وقد ارتدت ثوباً رقيقاً أبيض بدا فيه جمالها الساحر أشد سحرا برغم أنه كان فى بدء ترعرعه . ولما أقبل أبوها بعد دخول أنطونيو على رأس الجند إلى القصر أمامه شقت هى وسط الجمع طريقاً واندفعت تعانق أباها باكية من شدة التأثر. وكانت هذه أول مرة رأت فيها عين الرومانى الفاتح الطويل القامة العريض الأكتاف الشره إلى كل لهو ومسرة ، تلك الفتاة الطفلة ماتزال ، والتى برعت برغم ذلك كل قريناتها من فتيات القصر ونسائه . ولم تنس كليوباترة فى دلها وتيهها أن توجه إليه نظرة حلوة فيها أكثر من معنى الاعتراف بالجميل لرده أباها إليها وإلى ملكه .

وعاد أنطونيو إلى روما وعاد بطليموس إلى الحكم وإلى اللهو يستمرئ مرعاه ويمعن فيه بعدما حرم زمناً منه . وكانت ابنته تطوف وإياه أنحاء البلاد ينزلان فى المدائن العامرة ويقيمان فيها من أسباب اللذة ما لا يباح لفتاة أن تعرفه وظلا على ذلك ثلاث سنوات تباعاً انتهت بموت الأب بعدما أوصى بالملك لكليوباترة ولأخيها

بطليموس الطفل الذى لم يكن يزيد يومئذ على اثنى عشرة سنة على شريطة أن يتزوج من أخته . وكان زواج الأخ من أخته متعارفاً فى الأسرات الملكية يومئذ لحرصها على ألا يختلط دمها الفرعونى المستمد من الشمس كبيرة الآلهة بدم الرعايا . وإذ كان هذا الأخ قاصراً عين له قوام ثلاثة اشتركت الملكة معهم فى الحكم وإن استأثرت به دونهم إلى حد عظيم .

وقد ملكت قلب المصريين فى الفترة الأولى من فترات حكمها بما كانت تغدقه عليهم من صنوف المتاع وبسحرها إياهم بفتنة جمالها ، حتى دعيت إذ ذاك حبيبة الشعب وملكة كل نعيم ، لكن عهدها بذلك لم يطل . فقد بعث منيلوس يطلب إليها إرجاع الجند الرومانيين الذين ظلوا عندها . وإذ كان هؤلاء الجند قد استوطنوا الإسكندرية وتزوجوا فيها ومتعوا بنعيمها فقد أبوا مغادرة مصر واستغاثوا بالشعب . ثم جاء من بعد ذلك ابن يومى لنفس القصد . وكان لأبيه على أبيها فضل إعادته إلى ملكه مما أجلسها هى على العرش بعده . لذلك رأت واجباً عليها أن تحسن وفادته . وقابلته فرأت فيه غير أخيها الطفل الذى فرضه الملك زوجاً لها ، فقبلته ضيفاً فى قصرها وأجابته إلى ما طلب أن كان أبوه يومئذ فى حرب مع قيصر . وقد غاظ ذلك أخاها منها فانضم إلى المؤتمرين بها وعاون على انتقاض الشعب عليها ومحاولته قتلها . وإذ كانت لا تملك الفرار من طريق البحر فرت فى ذهبية إلى الصعيد كسيرة القلب أن لم يفعل جمالها فى أولئك السكندريين فعله . ونزلت طيبة على صورة لم تعهدها أيام زيارتها المدينة الخالدة مع أبيها المترف المتلاف . وبدلا من أن تجعل مقامها فى طيبة الأحياء جعلت مقابر الملوك موضع نجواها كأنما كانت تريد أن ترقد بينهم تنتظر البعث وإياهم آمنة فى الآخرة منكاً أكثر من ملك مصر ثباتاً . لكن أصواتاً انبعثت إليها من جوف مقابر هؤلاء الفراعنة العظام تناجيها : أن لا ملك بغير إقدام ولا جلالة من غير كبرياء ولا حكم لمن لم تملك نفسه شهوة

الفتح . وأيأسها دعة المصريين من أن تجد منهم أى عون أو مدد . ففرت إلى سوريا وهى فى مقدرتها على سحر أهلها أكبر أملا وفى فتنتهم بجمالها أشد ثقة ولم يخنها حدسها . فما كادت تستقر فى ربوع الشام حتى سحرت أهلها بجمالها وبلاغتها وإقدامها فالتفوا حولها واجتمع منهم جيش سارت هى على رأسه ممتطية جوادها . لكن المصريين بعثوا هم الآخرين بجيوشهم ورابطوا على حدود ما بين مصر والشام ، ووقف الجيشان وجهاً لوجه لا يلتقيان .

وفى هذه الأثناء هزم قيصر بومبى فى موقعة فرسالا وفر المنهزم إلى مصر . علّه يجد موئلا فى بلد له عليه وعلى القائم على عرشه فضل سابق . لكن أوصياء بطليموس الطفل علموا أن قيصر يطارد غريمه ، وخشوا إن هم حموا هذا الغريم أو آلجأوه أن يصب عليهم قيصر جام غضبه ، فقتلوا اللائذ بهم . فلما نزل قيصر عليهم وعلم ما فعلوا ركبه الهم وحزن غاية الحزن وأمر أن تقام لبومبى أفخر طقوس الجنازة .

وعرفت كليوباترة أمر ذلك كله ، وعرفت أكثر منه أن قيصر لما علم بما بينها وبين أخيها من حرب نصب نفسه حكماً بينهما عملا بوصية أبيها أن تحمى روما ملك أبنائه من الشتات والدمار . هنالك فكرت فى أن تلجأ إلى هذا الحكم ترفع إليه ظلامتها غير جاهلة ما قد يحمله لها من ضغن أن حمت ابن خصمه وأن مدت بومبى بالرجال والذخيرة . لكنها كانت واثقة من سحرها مطمئنة إلى مقدرتها وفتنتها مؤمنة بان لا نجاح من غير إقدام وزادها طمأنينة ما كان من بكاء قيصر حين علم بقتل بومبى . فتركت الجند واستصحبت مؤدبها الأمين أبولو دور ، واجتازا طريق البحر حتى وصلا أمام الإسكندرية ، بقى أن تدبر الوسيلة للمثول فى حضرة قيصر . وكليوباترة نحيفة القوام بضة لينة الملمس . فليس يعجز أبولو دور أن يحملها وأن يزعم أنها بعض المتاع وأنه من رجال روما يريد إيصال ما يحمله لقيصر . فالتفت الصبية الفاتنة فى بعض أسمال وأردية من غير أن تبدل شيئاً من زينتها الملكية

وعطرها ، وحملها مؤدبها على كتفه وزعم حين سأله الحراس عن غايته أنه موصل ما يحمل إلى بعض ضباط قيصر . واجتاز معسكر الرومان حتى أنزل حمله فى رفق أمام الظافر على عاهل روما ، الباكى عليه حين وفاته .

وكانت هذه هى الساعة التاريخية التى اتجه فيها الزمن غير وجهته . الساعة التى وقف إزاءها القصاص والمؤرخون أذهلهم البهر وسحرتهم الفتنة كما أذهلا قيصر وسحراه . نضت الملكة الصبية ما التفت به من أطمار وأسمال وبدت فى زينة الملكة وعطرها وجلالها . أكانت طويلة أم قصيرة ؟ أكان أنفها كبيراً أم صغيراً ؟ لم يعرف قيصر فى هذه اللحظة من ذلك شيئاً ، واختلف المؤرخون فيه خلافاً كبيراً . وكأنما كان لجمال هذه الفاتنة من الروعة ما لأشعة الشمس من قوة تحول دون التحديق بها . وكأنما بقى هذا الجمال فى قوة سحره بعدما مر على صاحبته من عصور وقرون فكل يختلف فى صورته وفى قسماته . على أن كليوباترة لم تحاول فتنة قيصر بجمالها . بل ارتمت عند قدميه ضارعة مستغفرة ، وجعلت تتكلم وتشكو وتستعطف . وكان صوتها أفعل سحراً من جمالها ، وكانت عبارتها أنفذ إلى القلب من صوتها إلى شغاف الفؤاد ، ومن جمالها الذاهب باللب .

جعلت تتكلم وتشكو وجعل قيصر ينصت ويصغى ، ثم صار لا يسمع دفاعاً ولا شكوى بل أنغاماً دونها صوت البلبل وعزف الناى وانتهى بكليوباترة وبه الأمر أن وقفت وجثا هو على قدميها ضارعاً مستغفراً ، ثم حملها على كتفه كما حملها إليه أبولودور وذهب بها إلى مضجعه .

وكان قيصر برغم تجاوزه الخامسة والخمسين محباً للنساء ، كما كان مثار إعجابهن بقوامه ونظرته وبروحه المهذب الرقيق وعزمته الصادقة القوية . لذلك اتصل بينه وبين كليوباترة منذ هذه المقابلة الأولى بما سحره عن كثير مما كان اعتزم لمجده ومجد روما . وجلست هى إلى جانبه فى قصرها المنيف تعجب به وتثير إعجابه . وملكته

حتى لم تبق فى شك من حكومته بينها وبين أخيها . ودعا هو أخاها الطفل ليصلح بينهما ، فلما دخل عليهما قرأ فى عيونهما ما هاج الدم فى عروقه الضعيفة ، وما دعاه ليلقى التاج عن رأسه وليخرج صائحاً فى الشعب وفى جند روما داعيا إلى الثورة على أخته وعلى قيصر لعهر كليوباترة وخيانة صاحبها . ولم يرد قيصر أن يقاتل لقلة جنده وحرصه على استبقاء هذا الطفل مغمضاً عينه على ما يفعل الحبيبان ، فاسترضاه وصالحه على تنفيذ وصية أبيه بإشراف روما . ورضى الغلام آملا أن يطمئن له الأمر فيصير ملكاً وفرعوناً وإلهاً . وظل هو وكليوباترة يرتشفان من كأس الحب وينهلان أعذب موارد الهوى بما يتفق وروحيهما المهذبين . ولقد كانا بذلك سعيدين كل السعادة . ولم يكن ورد سعادتهما مقصوراً على اتصال الغرام بين ابنة الملك العازف اللدنة القوام ، الموسيقية الصوت والنفس ، الرطبة الخلق ، الندية النظرة الرشيقة رشاقة الراقصة ، وبين قيصر الساحر الحلو الحديث . بل كان ورد سعادتهما الحق هو الحب . كبل كل واحد منهما صاحبه بأغلال هذه العاطفة القاسية السامية فى قسوتها فسعد كل بأغلاله . وكانت كليوباترة أكثر سعادة لأنها استردت مع هذا الحب ملك مصر ووضعت يدها على تاج روما وصرفت قاهر السكسون والجرمان وسائر دول أوربا عن حروبه فى سبيل الجمهورية ليحارب فى سبيلها وليقهر أوصياء أخيها وليثبت لها أركان عرشها بعدما ثبتت فى قلبه وظل كذلك ستة أشهر لا يعرف من أمر روما شيئاً ولا يبعث إلى روما بخبر ، وإن عرفت روما من أمره مع ملكة مصر كثيراً . وزادت به ارتباطاً وازداد لها عبادة حين حملت منه . إذ ذاك لجا فى أسباب المسرة يلتمسانها فى كل مكان ويرتجيان النعمة من كل الآلهة فأقاما أعياداً عند الأهرام وأبى الهول ، وفى أبيدوس عند قبر إيزيس وأوزوريس ، وفى دندرة حيث معبد هاتور إلهة النسل الخصب وفى طيبة ذات الأبواب المائة ، وفى أنس الوجود ، وفى كل معبد وعند كل إله .

ووضعت كليوباترة غلاماً دعته قيصرون وخلعت عليه كل ألقاب الفراعنة آلهة مصر وعواهل روما وحكامها . ثم أبحر قيصر إلى روما ولحقت هى به فى أبهة الملك وجلاله ، وفى حاشية ليس للرومان بها عهد . وقيصر ظافر والشعوب عباد من ظفر . وقد أقام لمناسبة عودته أعياداً أسرف خلالها فيما خلعه على الشعب من أعطيات ونعم زادت الشعب له عبادة وأنسته ما كان من انصراف قيصر عنه إلى كليوباترة عاماً كاملا . لكن هذا الشعب لم يعجب من كليوباترة بجمالها الرائع المترفع ، لأن زعماءه وقادته جعلوا يستعطفونه على كالبورينا زوجة قيصر .

ولم يعن قيصر من ذلك بشىء . بل أقام لابنة بطليموس قصراً على نهر التبر جمع فيه من ألوان النعيم ما أبدعه خيال الملكة ، وجعل يزورها فيه فتقيم له من المراقص وصنوف اللهو ما ينسيه كل هموم الحكم ومتاعبه . ثم جعل يستقبل أصحابه فى قصر التبر . ولا يخفى عليهم من صلته بكليوباترة شيئاً . وبالغ فى الحفاوة بها حتى أقام لها هيكلا نصب فيه تمثالها على صورة الزهرة آلهة الجمال والحب . ودار فى خاطره أن يتزوج منها برغم وجود كالبورينا زوجته وبطليموس الطفل زوجها . ومع أن مجلس الشيوخ لم يكن ينظر إلى هذا الزواج بعين الرضا فقد فكر فى أن يعدل قوانين روما بما يبيح للرجل أن يعدد زوجاته مادام لا عقب له . ولقد كان فاعلا وكان قيصرون يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ويتغير وجه التاريخ وتبقى مصر مقراً للحضارة كما كانت لولا أن دبرت المؤامرة لقيصر وأن قتله أصحابه يوم أعياد المريخ فى العام الرابع والأربعين قبل الميلاد .

بكته كليوباترة ثم عادت إلى مصر مع حاشيتها وأبنائها وتركت أخاها الملك زوجها فنسيه التاريخ ولم يعرف أحد عنه بعد ذلك خبراً ، وأقامت بالإسكندرية متوجسة خيفة أن يوقع بها خصوم قيصر وقتلته . لكن الحروب التى قامت بين أصدقائه وقتلته انتهت بانتصار أنطونيو وأصحابه فى موقعة فيليب . ولم يزل ذلك

وجلها وظلت فى خشية من أن ينزل أكتاف ابن أخت قيصر مصر وهو لابنها من قيصر ألد عدو . لكن نجمها كان ما يزال نجم سعادة . فتقاسم المتصرون ملك روما ووقع الشرق لأنطونيو . وأنطونيو صديق قيصر ومحبه . وأنطونيو رجل شهوة لا صبر له أمام امرأة . وأنطونيو معجب بجمال كليوباترة منذ سنين ، عابد إياها مذ كان يزور قيصر فى قصر التبر . مع ذلك لم تر كليوباترة أن تبعث إليه وفوداً تهنئه بالملك كما بعثت سائر ممالك الشرق التى وقعت فى حكمه وهى لم تمده فى حروبه مع قتلة قيصر بمدد من مال أو رجال فغاظ ذلك أنطونيو وبعث إليها رسولا أن تحضر بنفسها لتدافع عن ذنوبها . وظل الرسول فى قصرها أياماً عاد بعدها مسحوراً بها آخذاً نفسه بالدفاع عنها حتى تحضر إجابة لطلب سيده . وبقيت هى زمناً تعتذر عن عدم مسارعتها لاجتياز البحر بشتى الأعذار . وبقى رسول أنطونيو خلال ذلك يحدثه عن فتنتها بما أذهب صبره . ثم بعثت هى أنها آتية إليه فى تارسيس وذكرت موعد وصولها فخف الحاكم إلى المدينة ينتظرها وأقبل أسطولها يشق عباب البحر حول سفينها السابح تدفعه أشرعة من خز ، ويحمل مقدمه الرفيع تمثال آلهة البحر ، وتبدو فى وسطه مقاصير زينت بأفخر الرياش ، وقد ذهب بالشعب لما رأى كل هذا الجمال والجلال فصاح : « هذه أفروديت بل هذه الزهرة أتت تزور إله لهونا المحبوب » .

وبعث أنطونيو برسوله يدعوها للعشاء عنده ، فاعتذرت بأنها متعبة ودعته إلى سفينها . فلم يغضب ولم يتردد بل طار إليها وقضى شطراً من الليل فى حضرتها نسى فيه الذنوب ونسى العقاب ونسى كل شىء غيرها ، ثم دعته فى الليلة التالية إلى وليمة عشاء فى قصرها ودعت معه جمعاً من الأمراء وأرباب الدولة ، وما كان أشد بهرهم حينما رأوا الليل ينقلب فى ذلك القصر نهارا ورأوا فيه من التماثيل والآنية والطنافس والخدم وألوان الطعام يتناولونها وتطربهم أنغام الموسيقى تطير فى الجو مع ريح العطر والزهر وتمتزج مع أنغام أجسام الراقصات اللدنة بما لم يحط به خيال أحد منهم من

قبل . وكليوباترة وسط هذا الجمال الساحر أروع فتنة وأشد سحراً . وأبدى أنطونيو دهشته متى نظمت الملكة هذا القصر وما فيه . فابتسمت قائلة : إنه رسولها الذى بعثت به من أسابيع ثلاثة هو الذى صنع هذا بأمرها .

ودعاها أنطونيو إلى قصره ودعا معها الأمراء وحاول أن يجاريها فى البذخ والنعمة ثم ابتسم آخر الوليمة أن رأى محاولته عبثاً . ودعته وأمراءه إلى وليمة ثانية قالت إنها تكلفها ثلاثة ملايين درهم فأنكر أنطونيو ذلك عليها ، وراهنته إنها فاعلة . وكلف هو أحد الأمراء أن يحصى التكاليف . ولما رأى أن لم تزد الملكة شيئاً على ما فعلت فى الوليمة الأولى أبدى لها أنه قهرها . فاستمهلته وخلعت من أذنها قرطاً فيه جوهرة منقطعة النظير كان الإسكندر أهداها لبعض أسلافها وألقت بها فى كوب به خل فذابت وشربت هى الكوب وما فيه وقهرت أنطونيو . وظلت فعلتها هذه يقصها المؤرخون على أنها بعض العجائب .

وأسرع أنطونيو بالنظر فيما لديه من شئون الملك وعاد وكليوباترة إلى مصر واندفعا فى سبيل الغرام تهيج سماء مصر فى نفسيهما ما انطوتا عليه من حب اللذات واستباحة كل ألوانها والافتنان فيها ، على أن أنطونيو لم يكن مهذباً كقيصر ، بل كان جندياً خشناً فج الذهن لا يعرف الرقة ولا يحيط من الأدب أو اللغات بشىء ، وإنما حببه إلى الجند ورفعه إلى مقام قيصر سهولة فى العبارة التى كان يخطبهم بها ونزول منه إلى مشاركتهم فى تذوق اللذات الدنيئة السافلة التى كانوا يتذوقونها . فلم يكن حى من أحياء الدعارة فى روما أو بغى من بغاياها لا يعرفه . وكان من أسباب فخره أن أعقب من الأولاد حيثما ذهب ما لا عدد له . فألفت فيه حياة بهيمية قوية لم تكن فى قيصر ، ولكنها لم تجد فيه حياة العاطفة الإنسانية التى تغذى القلب وإن قصرت عن إلهاب الدماء ، على أن هذا الخلاف بينهما اضطر أنطونيو إلى أن يتعلم ويحضر من الدروس ما يخفف من شعوره بأنه دون كليوباترة ، ودفعها هى لتنزل عن التفنن

فى رقة المتاع إلى هذه البهيمية الثائرة . وقد أنفت ذلك فى بادئ الأمر حين كان حرصها على أنطونيو راجعاً إلى حاجتها السياسية له . لكنها تذوقته بعد ذلك وبلغت من تذوقه أن لم تكن تطيق مفارقة صاحبها حين جولاته فى أحياء الدعارة واللهو ، ولم تأنف أن تدفع بكتفيها أيًّا من رجال تلك الأحياء ونسائها على طريقتهم . وبقيا غارقين فى نعمتها حتى حملت . وخيل إليها أن سيربط الحمل بينها وبين صاحبها كما ربط بينها وبين يوليوس من قبل . لكنه رآها ثقلت حركتها وخمد شعاع روحها ، فعاد يفكر فيما كان غافلا عنه من شئون الدولة ، ورأى أن لا مفر له من العودة إلى روما ليصالح أكتافيا بعد ما حزبت عليه فلفيا زوج أنطونيو وهبت لمحاربته ، وليستعديه على أهل فينيقيا والشام الذين انتقضوا على روما وخلعوا نيرها . ولم تجد توسلات كليوباترة إليه كى يبقى ولو إلى حين وضعها فلما قابل فلفيا فى اليونان أنزل عليها من سخطه ما كسر قلبها ، وغادرها إلى روما فماتت قبل وصوله إليها . وأصلح موتها بينه وبين أكتاف وتزوج من أخته أكتافيا برضا مجلس الشيوخ . وكانت أكتافيا عدل كليوباترة فى سنها وجمالها ، وكانت أم طفلين من زوجها الأول ، محبة لحياة العائلة ونظامها بما يسر لها أن تسير زوجها وفق رأيها . فأنطونيو ككل رجل له مثل هذه الطبيعة الحيوانية يهون على كل امرأة أن تقوده ، ولقد ذهبت معه إلى اليونان وظلت معه زهاء ثلاثة أعوام أعقبت له فى أثنائها ابنين شغلت بهما وبأولادها الآخرين وبأولاد أنطونيو من فلفيا ، فأحرج ذلك صدر أنطونيو منها وجعل يراها أمًّا لا يعنيها منه إلا أبوته لأبنائها ، من غير أن تعير مجده ولا عظمته اهتماماً كالذى كانت تبديه كليوباترة ، إذ كانت تدعوه أنطونيو الأكبر . وبلغ من حرج صدره أن اتهمها بأنها أحن على أخوتها لأكتاف منها على زوجيتها له ، ثم بعث بها إلى روما وانطلق هو إلى سوريا يجنى ثمار النصر الذى أحرزه بعض قواده .

فى هذه السنوات الثلاث كانت كليوباترة تعانى من الهم والألم أشدهما تبريحاً

ولذعاً . علمت بما كان من زواج أنطونيو وأكتافيا على أثر وضعها توءمين دعت أحدهما الشمس والأخرى القمر ، فاضطربت للخبر وما كانت من قبل تضطرب من خشية امرأة . وزاد فى مخاوفها ما قد يؤدى هذا الزواج إليه من القضاء على آمالها فى قيام قيصرون مقام أبيه . هنالك غادرت الإسكندرية إلى دندرة وشغلت نفسها بأن أقامت لهاتور معبداً ثم انقبضت نفسها لهذه الوحدة التى أحاطت بها فعادت إلى عاصمتها وشغلت نفسها من جديد ببناء قبرها . وكان أكبر جهادها أن تنسى أنطونيو باستدامة العود إلى تذكر قيصر . ونجحت فى ذلك نجاحاً سرّها . لكن هذه الذكرى وذلك الاشتغال بما بعد الموت لم يكونا ليتفقا مع ما يتحرك به الشباب فى جسد اعتاد ملذات النعيم ثم قسر على عفة قاسية . فعادت إلى مثل ما عودها أنطونيو من المرح فى الأنحاء التى يلهو الشعب فيها . لكن ذلك لم يطفئ من رغباتها ما كان كامنا .

ولما عاد أنطونيو إلى الشام بعث إليها رسولا يستقدمها إليه بأنطاكية . ويل له من جرىء ! أيظن أن ملكة الملوك تطير إليه بعد أن نسيته ، بل بعد أن أبغضته وبعد أن هجرها إلى أحضان امرأة غيرها قضى معها أكثر مما قضى مع كليوباترة ؟ لكن لا ! تضاءل ذلك كله أمام دعوتها إياه فطارت تعد عدتها للسفر واجتازت البحر إليه لائمة عاتبة . وكفاها أن أقسم لها أن قلبه لم يعرف غيرها ولم يتعلق بسواها لتعود وإياه سيرتها الأولى ؛ وأنطاكية كانت ثالثة مدائن بحر الروم بعد روما والإسكندرية ، فكان لها فيها من مسارح اللهو ما يسد كل شهواتها . ولكى تؤمن بحبه إياها عقد عليها زواجه منها وخلع عليها ثلاث ولايات بدل ثلاث السنوات التى غابها عنها .

وبعد زمن نهلا فيه ما طاب لهما من ورد النعيم جهز لمحاربة خصوم روما فيما وراء الفرات ، ورفض مشيئتها أن تصحبه لما فى ذلك عليها من مشقة لكنه عاد إلى سوريا محطما جيشه . فجاءت إليه من خير مصر مالا ورجالا بما أنساه هزيمته . وأقامت معه

فأنسته فتنتها كل متاعبه . ثم تلقى رسالة من زوجه أكتافيا أنها آتية إليه من روما فى عدة وعديد . فتأثر حين رآها تقابل صده لها وجفوته إياها بهذا الكرم والإخلاص والحب . لكن كليوباترة وقفت فى سبيل ما أتت أكتافيا فيه . ورفض أنطونيو أن يرى أخت عاهل روما أو أن يقبل منها مدداً ، فعادت إلى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة مقهورة آسفة .

وعد الرومانيون هذه الفعلة على أنطونيو ، فلما استرد قواه عاد فحارب خصوم روما وانتصر عليهم ، لكنه بدلا من أن يحتفل بانتصاره فى روما ذهب يحتفل به فى الإسكندرية ويعتبرها عاصمة تعادل روما . وذلك مالا طاقة للرومانيين باحتماله . فأثار أكتاف الرومان عليه . وابتهجت كليوباترة لذلك وجهزت أسطول مصر الضخم ، وسارت وأنطونيو إلى أثينا فى انتظار ما ستتمخض عنه الحوادث راجية الانتصار على أكتاف حتى تجلس قيصرون على عرش أبيه . لكن نجمها كان قد بدأ ينحدر نحو المغيب ، فقد التقى الأسطولان فى (أكسيم) وكانت الملكة فى سفينتها « الأنطونياد » فى مؤخرة الأسطول المصرى ترقبه . وبدأت المعركة يحمى وطيسها وشعرت الملكة بأن حلمها أن تحكم روما وأن تقيم ابن قيصر مقام أبيه على عرش الغاصب أكتاف يتلاشى عند ذلك طار صوابها وتولاها الذهول ، فلما أفاقت ألفت الريح تهب نحو مصر فأمرت رجالها بالعودة وما يزال الأمل فى النصر مضطربا بين العسكرين . والتقطت أنطونيو من سفينته وأخذته معها فى « الأنطونياد » وعادا إلى مصر وقد تولاه الأسى أن رأى نجمه يأفل وعظمته تذوى وتذبل .

فأما كليوباترة فلم تفل الهزيمة من غرب عزمتها ، بل نقلت أسطولها براً من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر راجية أن تغزو الهند على نحو ما كانت تفكر مع قيصر . لكن هيرود عدوها فى سوريا لم يمهلها أن قتل رجالها وأحرق سفنها . هنالك

تحطمت كل آمالها الإمبراطورية واضطرت أن تقف كل حياتها ونشاطها على الدفاع عن مصر.

وأسلم أنطونيو نفسه للشراب ليله ونهاره آملا أن ينسيه الشراب هم انكساره. وظل فى شرابه حتى علم أن أكتاف آت من طريق سوريا لغزو مصر وأكبر همه أن يطفئ حياة ابن قيصر وكانت مشابهته لأبيه أكبر شهيد على اغتصاب ابن عمه عرش روما، وأخذ أنطونيو قيادة جيوش مصر لكن الحظ إذا عثر لج به العثار. فانهزم أنطونيو فعاد إلى قصر كليوباترة وأمر أحد عبيده أن يقتله. فأمسك العبد الخنجر وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهوى فأصغر ذلك أنطونيو فى عين نفسه فقضى عليها بأن ألقى بنفسه على النصل وذهب يعالج آلام الاحتضار يسلكها سبيلا لراحة الموت، وقضى بين ذراعى محبوبته الفاتنة فبكته أحر بكاء ثم دفنته فى القبر الذى شادته حين هجرها وبالغت فى الحزن عليه لما أحست من سوء ما أعد لها القدر من مصير بعده.

ودخل أكتاف الإسكندرية ظافراً وكل همه أن يقضى على ابن عمه الذى فر من وجهه وحاولت كليوباترة أن تلعب به كما لعبت من قبله بقيصر وبأنطونيو. وفى سبيل أبنائها وفى سبيل ملك قيصرون لم تكن لتعنى بشىء أو تتورع عن شىء. وبرغم حزنها على أنطونيو وجزعها على مصيرها ومصير أبنائها ولزومها القبر تقضى فيه وقتها باكية مكتئبة فقد ظفر أكتاف منها بساعات حديث شهى وكان كل همه أن يأخذها إلى روما وأن تسير فى حفلات نصره ليرضى بذلك شهوة انتقامه وانتقام أخته منها، وليقدم للشعب الرومانى منظراً تبتهج له قلوب الشعوب: منظر ذل العزيز. وعرفت هى هذا فثارت فى عروقها كل دماء البطالسة فراعنة مصر الأعظمين. لكنها لم تكن قادرة إلا على نفسها. وكانت قدرت هذا المصير ووطنت عليه نفسها وأوصت خادماً من أتباعها أن يحضر لها ثعباناً فى فاكهة طعامها يوم تشير

له إلى جبينها . وأشارت إلى هذا الجبين المصقول يوم أيقنت أن أكتاف غريمها يريد أن يذلها . ونزعت التين واحدة بعد واحدة ثم أمسكت الثعبان فوضعت فمه فى ثديها ليبعث إليها الموت من خلاله ، وكم بعث هذا الثدى الحياة إلى أبنائها وإلى الذين أنعمت عليهم الآلهة بالمتاع بها .

وكان معها خادمتاها إيراس وشارميون فشاركتاها مصيرها بعد ما حلتاها بكل حلى ملكها الذى تحطم ، والذى حاربت حتى المقادير فى سبيل عزه ورفعته منذ مولدها إلى مماتها (من سنة ٦٩ إلى سنة ٣٠ قبل الميلاد) .

ويومئذ ذهبت إلى بارئها أرواح كثيرين من عشاق فاتنة التاريخ . ويومئذ انطفأ نجم كان منيراً فى سماء الجمال والذكاء والقوة والنشاط وانطفأ معه سراج أسرة البطالسة كما انطفأ من مجد مصر حظ عظيم .

obeikandl.com

الخديو الأول إسماعيل باشا

لئن صح أن كان لولاية محمد على حكم مصر أثر مباشر فى تاريخها الحديث ، وصح أن كان لشق قناة السويس أثر مباشر كذلك فى توجيه هذا التاريخ وجهة خاصة ، فالذى لا ريب فيه أن أكبر الأثر الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الآن إنما ترتب على حكم إسماعيل باشا . فأكبر مظاهر الحضارة التى تراها اليوم فى مصر يرجع إليه : إليه يرجع فضل إنشاء السكك الحديدية وتنظيم البريد ، وله الفضل الأول فى النظام القضائى القائم فى مصر حتى اليوم ، وله أكثر من ذلك كله الفضل الأكبر فى شعور الأمة المصرية بقوميتها وبكيانها .. ثم إن عليه تبعة الارتباك السياسى الذى لا تزال مصر تجاهد بكل قواها للخروج منه ، وتبعة الاضطراب المالى الذى شل حركة البلاد سنوات طويلة وهو ما يزال إلى اليوم باقى الأثر ، وعليه أكثر من ذلك كله تبعة تسليم البلاد ماليًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا إلى أيدى الأجانب .

فهذه الستة عشر عاماً التى رأته على عرش مصر (من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩) والتى شهدت من مظاهر النشاط المعمر ، ومن فضائح الظلم المخرب ، ومن البذخ والإسراف اللذين لا يعرف التاريخ ولا تعرف الأقاصيص لها نظيراً ، والتى انتهت بسقوط عاهل مصر العظيم بعد أن جاهد أمته فأجهدها ، وبعد أن جاهد أوربا فأخضعته لها ، وبعد أن جاهد القدر فهوى به عن عرشه وأخرجه من مصر حسيراً ينظر إلى شواطئها تبتعد عنه بعين دامعة وقلب كسير ، هذه الستة عشر عاماً هى التى جرت إلى مصر مظاهر الحضارة الأوربية ، وهى التى جرت على مصر الخراب ، وهى التى أيقظت فى شعب مصر الروح الاستقلالية التى لم ينسها يوماً من الأيام ، وهى التى أججت فى نفوس المصريين نيران كراهية الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل .

ولم يكن عجيباً أن تترك هذه الأعوام الستة عشر فى مصر كل هذا الأثر وإسماعيل باشا كان حاكم مصر المطلق . فقد كان بشخصه بطلاً من أبطال الأقاصيص ، وكانت أيام حكمه أسطورة لا يسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم . كان إسماعيل ساحراً أعظم السحر ، ذكيًّا أشد الذكاء ، وسيم الطلعة حاد النظرة ماضى العزيمة جذاباً لكل من اتصل به . وكان مع ذلك قصير النظر شرهاً فى كل مطامعه وشهواته مغامراً فى سبيلها مجازفاً مجازفة لا يهون منها أى حذر ، وكان فيه من دم محمد على إقدام لا يعرف التردد ، وبطش لا هوادة فيه ، وقسوة لا يتسرب إليها أمل فى رحمة . وكانت هذه الصفات كلها بالغة منه فوق ما تبلغه من أذكياء الناس والباطشين منهم ، ثم إنه كان مولعاً أشد ولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية وإن غاب عنه الجانب المعنوى منها ، وهو الجانب الذى يحركها ويمدها بكل ما فيها من قوة . لذلك سخّر ذكاءه وإقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الأوربية وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر إن لم يكن أبهى منه

وأزهر ، وليقول عن مصر إنها أصبحت قطعة من أوربا . وفى سبيل ذلك أنشأ كثيراً وخرب كثيراً وأثقل كاهل مصر بدين ماتزال تنوء إلى اليوم به ، وماتزال تحتمل بسببه نقصاً فى سيادتها وذبولاً فى استقلالها وعزتها .

ولد إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على بمصر فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربى فى المدرسة التى أنشأها جده محمد على باشا بالقصر العالى ، ثم أوفده جده لما بلغ السادسة عشرة من عمره مع طائفة من الشبان إلى باريس حيث التحق فيها بمدرسة أركان حرب L'ecole de l'etat major ثم عاد إلى مصر بعد أن أتم بها دراسته .

وكان عباس الأول والى مصر يومئذ . وقد حدث خلاف بينه وبين أفراد العائلة ومن بينهم سعيد باشا على اقتسام التركة . فذهبوا إلى الآستانة يحتكمون إلى جلالة السلطان ، وفض السلطان النزاع بأن أوفد اثنين من رجاله إلى مصر سوّيا الخلاف ، وعاد أفراد العائلة العلوية خلا إسماعيل الذى ظل بالآستانة وعين فيها عضوا بمجلس أحكام الدولة العلية .

وفى سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا أريكة مصر خلفاً لعباس الأول . فاستقدم إسماعيل وجعله على رئاسة مجلس أحكام مصر فى مثل وظيفته التى كان يشغلها بالآستانة . ولم يكن إسماعيل يومئذ وليًّا للعهد بل كان أخاه أحمد أكبر رجال العائلة وكان بذلك صاحب عرشها بعد سعيد . لكن أحمد توفى وآلت ولاية العهد لإسماعيل . من يومئذ جعل سعيد يخشى وجوده على مقربة منه فجعل يوفده فى مهمات خاصة إلى البابا وإلى نابليون الثالث وإلى الباب العالى بالآستانة . وفى سنة ١٨٦١ نشبت فتنة بالسودان فبعث به على رأس أربعة عشر ألف مقاتل لقمعها . ونجح إسماعيل فى ذلك وعاد وله فى أعين الشعب مقام كريم . ولما توفى أخوه أحمد وآلت إليه ولاية العهد ساءت العلاقة بينه وبين عمه الوالى إلى حد أنه لما توفى سعيد باشا فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ونودى به والياً مكانه حدد للتشريفات بالقاهرة نفس

الساعة التى كانت محددة لسير جنازة سعيد بالإسكندرية ، فلم يحتفل بالدفن احتفالاً رسميًّا ولم يحفل بالمشهد أحد .

وقد انتعشت النفوس بأكبر الآمال لأول ولاية إسماعيل باشا الحكم ، أن كان الناس فى سعة بسبب انتظام جباية الضرائب أيام سعيد وارتفاع أسعار القطن ارتفاعاً عظيماً ترتب على حروب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها ، وأن أبدى إسماعيل من الحرص على حضارة مصر وإصلاحها ما جعل الرجاء فى المستقبل عظيماً . وكان أول ما صنعه إسماعيل مما استراحت له النفوس أن نشر فى الناس على أثر ارتقائه العرش برنامجاً خلاباً كله المبادئ الحرة والوعود المغرية بخير الأمل والإصلاحات الواسعة على أحدث النظم الأوربية . وفى هذا البرنامج وعد بإلغاء السخرة والرقيق والاتجار به ، وبإصدار قوانين خاصة بالتعليم وبتحديد مخصصات والى مصر . وتوقع الناس أن ينفذ هذا البرنامج وأن تخطو مصر الخطى الواسعة التى تترتب حتماً على تنفيذه لما بدا على إسماعيل بعد عوده من دراسته بأوربا ومن سياحاته الكثيرة فيها من الحرص على تنمية ثروته الخاصة . وزاد الناس رجاء فى ذلك ماكانت عليه حال البلاد إجمالاً من الانتظام والطمأنينة .

لكن إسماعيل حرص ، إلى جانب نشر هذا البرنامج ، على نشر حالة الخزانة المالية وبخاصة فيما يتعلق بالديون التى خلفها سلفه سعيد باشا . ومع أن هذه الديون لم تكن تزيد فى التقديرات الرسمية التى عرفت إلى حين موت سعيد على أربعة ملايين من الجنيهات ، فقد ظهرت فى البيان الذى نشرته حكومة إسماعيل باشا أحد عشر مليوناً ومائة وستين ألفاً من الجنيهات . والسبب فى نشر هذا البيان ليس مجرد الحرص على تحديد ما للدولة وما عليها ، فمثل هذا الحرص لم يكن معروفاً فى ذلك الوقت . وإنما السبب أن إسماعيل باشا كان يرى ما يقتضيه تنفيذ برنامجه العظيم من طائل النفقات مما لا سبيل إلى الحصول عليه من غير طريق الاقتراض . لذلك أراد

أن يبين للناس وللأوربيين خاصة أن سلفه الذى لم يصنع شيئاً لحضارة مصر أكثر من هذا الجيش الذى اختاره من طوال القامات ، والذى كان يصحبه أنى ذهب ، هو الذى بدأ سنة الاقتراض وهو الذى اقترض هذا المبلغ العظيم من غير فائدة للبلاد .

والواقع أن مطامع إسماعيل كانت عظيمة تنوء بها موارد مصر . فقد أراد أن يصل إلى ما رمى إليه جده محمد على من استقلال البلاد . لكنه كان يعلم أن تحقيق ذلك بالسيف غير ميسور ، وأنه على كل حال عرضة لأن يصطدم من معارضة أوربا بما اصطدمت به انتصارات مصر أيام جده ، وكان يعلم كذلك ما للرشوة من أثر فى وزراء الباب العالى ، فإذا هو سخا بيده استطاع أن يحصل على هذا الاستقلال شيئاً فشيئاً ثم إنه رأى من جهة ثالثة أن لا سبيل للحصول على المال اللازم لهذه الغاية ولسداد أطماعه وشهواته إلا أن يظهر أمام أوربا حاكماً غربيًّا يريد الإصلاح بالفعل . فنشر البرنامج المشار إليه ونشر قائمة بديون سعيد وأبدى من مظاهر العطف الإنسانى على رعاياه ما جلب إليه أنظار أوربا . من ذلك أنه لم يوافق على الاستمرار فى تنفيذ إتفاقية قناة السويس التى عقدت فى عهد سلفه سعيد باشا بينه وبين المسيو فرديناند دلسبس لأنه رأى شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون فى حفر القناة أشد إرهاق ، يسامون الخسف ويضربون بالكرابيج ويطعمون الزقوم ويكادون لا يقتضون عن عملهم أجراً . ولما استحر الخلاف بين إسماعيل وشركة القنال ارتضى الطرفان تحكيم نابليون الثالث . ولسنا نستطيع أن نفهم هذا التحكيم إلا على أنه نوع من الكبرياء والغرور . فنابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، وشركة القنال على صفتها الدولية كانت ما تزال فى كل مظاهرها شركة فرنسية تعنى إمبراطور فرنسا حمايتها . فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبرياء والغرور معناه أنه لا يجوز لغير رأس من أكبر الرءوس المتوجة أن تنظر فى خلاف بين إسماعيل والشركة الدولية العالمية . وانتهى التحكيم بإلزام مصر بأن تدفع

للشركة تعويضاً عن عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة وثمانين مليوناً من الفرنكات ، أى ثلاثة ملايين وثلثمائة وستين ألفاً من الجنيهات . فإذا أضيفت نفقات الدعوى وما قامت به الحكومة المصرية من أعمال النشر والإذاعة وما كان يتقاضاه القائمون بهذه الأعمال من باهظ النفقات لم يكن غلوًّا تقدير ما خسرته مصر فى هذه الحركة بأربعة ملايين من الجنيهات .

وبعد زمن وجيز من ولايته الحكم جاء جلالة السلطان عبد العزيز إلى مصر ومعه الصدر الأعظم فؤاد باشا . فكانت هذه أول فرصة عرضت لإسماعيل كى ينفذ ما جال بخاطره كوسيلة لبلوغ الغاية التى صبا إليها من قبل جده محمد على . ولم يكفه ما أقامه لجلالة السلطان من أعياد فاقت فى الفخامة كل ما يتصوره خيال السلطان الشرقى . بل نفح الصدر الأعظم بمبلغ زهيد مقابل الخدم التى أداها أو يمكن أن يؤديها لبقاء علاقات المودة والصفاء بين والى مصر وجلالة السلطان . هذا المبلغ الزهيد هو ستون ألفاً من الجنيهات .

على أن تباشير الخير التى جعلت المصريين يستقبلون ارتقاء إسماعيل العرش بالبشر والتهليل لم تدم طويلاً . فقد انتهت حرب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها وعادت أسعار القطن فانحدرت من ستة عشر جنيهاً للقنطار إلى ثلاثة جنيهات أو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه . وفتكت بالزراعة المصرية آفات أنقصت من دخل الضريبة العقارية واضطرت الحكومة معها لشراء الماشية والغلال لتموين الأهالى مما خسرت معه ما يزيد على مائة وعشرين ألفاً من الجنيهات . ثم إن إسماعيل كان مغرماً أشد الغرام بتملك الأطيان حتى لقد بلغت مساحة «دوائر» العائلة المالكة فى سنة ١٨٦٥ ما يزيد على خمس الأطيان المنزرعة فى مصر الوسطى وفى الوجه البحرى .

ذلك كله مضافاً إلى حاجات الميزانية العادية وما احتاجت إليه الإصلاحات

العامة التى بدأ إسماعيل بالقيام بها تنفيذاً لبرنامجه جعل الالتجاء إلى الاقتراض أمراً لا مفر منه . وقد بدأ إسماعيل فعلاً بالاقتراض منذ ولى الحكم.. فلما انقضت على ولايته سنة وبعض السنة كان الالتجاء إلى المرابين فى مصر غير كاف لحاجاته ، وكان لابد من الاقتراض من بيوتات مالية كبيرة فى أوربا . ولم يجد إسماعيل عنتاً فى استصدار تصريح بالاقتراض من الآستانة . وبذلك استطاع فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٤ عقد أول قروضه وقدره ٥,٧٠٤,٠٠٠ جنيه .

كيف صور إسماعيل لنفسه برنامج الإصلاحات العامة ، وما هى الطريقة التى أراد أن ينقل بها مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الأوربية إلا القليل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية والذى دخل إلى مصر سدًّا لحاجات محمد على الحربيـة ؟ هى صورة غاية فى البساطة . يجب أن نقيم مدناً أوربية النظام فى طرقها وفى عمارتها وفى بساتينها فما يلبث المقيمون بها أن يصطبغوا بالحضارة الأوربية . ويجب أن ندخل أحدث المخترعات والنظم كالسكك الحديدية والبريد والتلغراف فما يلبث التامس أن يفهموا هذه الاختراعات والنظم وأن يصيروا كأصحابها ، ويجب أن نعلم جماعة من النشء ليكونوا واسطة احتفاظ بمظاهر الحضارة هذه . أما الشعب فلم يكن إسماعيل يأبه له كثيراً لأنه كان كغيره من الحكام الشرقيين إلى يومئذ ، وككثير من الحكام الغربيين إلى زمن غير بعيد قبله ، يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم . وقد أراد إسماعيل أن يصل لتحقيق فكرته من الحضارة والإصلاح فى سنوات مما لم تصل أوربا لتحقيقه إلا فى قرون ، فبدأ تنظيم القاهرة على نظام باريس وغير باريس من مدائن أوربا الكبرى يخطط فيها الشوارع ويقيم القصور وينشئ الدواوين ودور الحكومة ويغرس البساتين ، وجعل من جانبه يعيش عيشة بذخ لم يتهيأ لخيال شاعر ولا قصاص من قبل . وطبيعى أن اقتضى القيام بذلك كله من النفقات ما تلاشى معه قرض سنة

١٨٦٤ أسرع التلاشي وما كثرت معه الديون السائرة التي كان يقترضها من المرابين الأجانب المقيمين بمصر كثرة اضطرته للتفكير من جديد في الالتجاء إلى أوربا كي يعقد قرضاً آخر.

ولم يكفه قرض واحد ، بل كان وزيره نوبار باشا يتفاوض له مع كل البيوتات المالية وعقد له في ثلاث سنوات ثلاثة قروض. قرض سنة ١٨٦٥ وقدره ٣,٣٨٧,٠٠٠ جنيه وقرض سنة ١٨٦٦ وقدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقرض سنة ١٨٦٧ وقدره ٢,٠٨٠,٠٠٠ جنيه. لكن هذه الملايين كلها لم تكن شيئاً مذكوراً إلى جانب النفقات الباهظة التي كان يقوم بها إسماعيل باشا.

وماذا تريد من رجل أقل أطماعه أن يصل ليكون ملكاً على بلاد مستقلة استقلالاً داخليًّا على الأقل ! وكم كلفه ذلك من باهظ الرشوة يدفعها للكثيرين من رجال الباب العالي بالآستانة ! ولقد كانت أول خطوة خطاها في هذا السبيل أن حصل في سنة ١٨٦٦ على فرمان من جلالة السلطان بجعل الوراثة في أبنائه بدلاً من جعلها في أكبر العائلة كما كانت من قبل. ثم حصل كذلك على ضم سواكن ومصوع لمصر بعد ما سلخا عنها من بعد حكم محمد علي.

ثم إنه من بعد أن حكّم نابليون الثالث إمبراطور فرنسا في الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس أصبح صديقاً حميماً للشركة وأصبح ينتظر اليوم الذي يعلن فيه افتتاح القناة ليدعو العالم كله كي يشهد هذا التحوير البديع لنظام الطبيعة تحويراً من شأنه أن يغير سير الوجود الاقتصادي والتجاري تغييراً خطيراً. وكانت سنة ١٨٦٩ هي السنة التي حددت لهذا الافتتاح. وكانت قروض السنوات الثلاث السالفة الذكر قد نفدت كلها وتزايد الدين السائر مع ذلك تزايداً جعل إسماعيل يفكر في الحصول على المال للظهور بالمظهر اللازم في حفلة الافتتاح تفكيراً جديًّا استغرق كل مواهبه وكل ذكائه.

وفى هذا السبيل سافر فى سنة ١٨٦٧ إلى أوربا وزار باريس ولندره واستضافه نابليون الثالث والملكة فكتوريا . وكان معه فى هذه السياحة وزيره نوبار باشا المطلع على دخائل مفاوضات البيوتات المالية والقدير بدهائه وخبثه على القيام بأعمال فى السياسة جسام . وفى هذه الزيارة بدئ الحديث فى مسألة تعديل نظام الامتيازات الأجنبية . فقد كان إلى يومئذ كما كان إلى يوم إلغائه فى تركيا قائماً على القاعدة القانونية التى تقرر أن المدعى يقاضى المدعى عليه أمام قضاته . وكان من أثر ذلك أن شعر الأجانب أنفسهم بالارتباك فى مقاضاة بعضهم بعضاً . فاستقر رأى إسماعيل ووزيره على إقامة نظام المحاكم المختلطة فى مصر ، على أن يشمل اختصاص هذه المحاكم الشئون الجنائية كذلك . ومنذ هذه الزيارة التى قام بها إسماعيل لأوربا فى سنة ١٨٦٧ فتحت مسألة تعديل النظام القضائى فى شأن الأجانب ، وظلت المفاوضات فيها مستمرة بعد ذلك ثمانى سنوات حتى كللت بالنجاح فى سنة ١٨٧٥ . لكن هذه المسألة لم تكن الجوهرية يومئذ . إنما المسألة الجوهرية كانت الحصول على المال لسداد الديون السائرة فيما أعلنه إسماعيل باشا المفتش وزير مالية إسماعيل ولتحضير حفلة افتتاح القناة فى رأى المستر كيف الذى حقق أسباب ديون إسماعيل فى سنة ١٨٧٠ كما سنرى ، وقد نجح إسماعيل فى عقد قرض تم توقيعه سنة ١٨٦٨ قيمته الاسمية مبلغ ١١,٨٩٠,٠٠٠ جنيه والمتحصل الحقيقى منه مبلغ ٧,١٩٣,٣٣٤ جنيه . وقد قبل إسماعيل ضمن شروط هذا القرض أن يمتنع عن الاستدانة لمدة خمس سنوات مقبلة مما يدل على أنه كان فى أشد الحاجة إلى المال . وكان افتتاح القناة فى ذلك الظرف هو شاغل إسماعيل الأكبر .

فلقد حرص على أن يدعو إلى هذه الحفلة كل الرءوس المتوجة فى أوربا وأكبر عدد من ذوى المقام والمكانة فى العالم . وكان أكبر همه من هذا أن يشهد هؤلاء جميعاً كيف نقل مصر من بلاد شرقية أفريقية فجعل منها بلاداً غربية متحضرة . وفى

الحق أنه أعد لهذا المظهر خير عدته . فقد بنى فى القاهرة قصوراً تضارع أفخم قصور المدائن الأوربية العظمى . بنى قصر الجيزة الذى انقلب فى العهد الأخير حديقة للحيوانات ووصل بينه وبين القاهرة بكوبرى قصر النيل . وبنى قصر الجزيرة الذى آل أخيراً إلى الأمراء آل لطف الله . وبنى غير هذين من القصور الشاهقة ومن دواوين الحكومة ما تعتز بمثله مدائن أوربا . ثم أعد مسرح الأوبرا وكلف الموسيقى الإيطالى الكبير فردى فوضع أوبرا عايدة لتمثل فى أثناء حفلات الافتتاح . وأنشأ حديقة الأزبكية فى وسط القاهرة أسوة بالحدائق العامة فى العواصم الكبرى . وليتيسر للزائرين وبخاصة الإمبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث زيارة آثار الفراعنة اختط طريق الأهرام فى أشهر معدودة . هذا إلى ما مد من خطوط السكة الحديدية ، وإلى ما شيد من مدينة الإسماعيلية على ضفة القناة ، كما أنه كان قد أنشأ فى مختلف أنحاء القاهرة كثيراً من المدارس الجديدة ، كما أعاد المدارس التى كانت قد أنشئت فى عهد جده محمد على باشا واضمحلت من بعده . فأنشأ مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والألسن والعمليات والإدارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة للبنات ومدارس كثيرة أخرى فى القاهرة والإسكندرية والأرياف . وكذلك كان من حقه أن يفخر بهذه المنشآت العظيمة وأن يريها لملوك أوربا ليعلموا أنه أكثر حضارة من متبوعه الأعظم سلطان تركيا ، وأنه إذا طلب يوماً أن يستقل بحكم مصر فطلبه لا شىء من المبالغة فيه .

وسافر من جديد إلى أوربا سنة ١٨٦٩ وعاد بعد ما دعا كل الرؤوس المتوجة إلى حضور الاحتفال بافتتاح القناة . وقد أجاب الدعوة منهم عدد غير قليل . ثم تم افتتاح القناة فى خمسة أيام . ففى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ركب المدعوون بواخرهم وعددها ثمان وستون ترفرف فوقها أعلام مختلفة ويتقدمها (النسر) سفين الإمبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث التى جاءت بالنيابة عن زوجها وقطعوا

المسافة من بور سعيد إلى الإسماعيلية فى ذلك اليوم . وبعد أن أقيمت فى الإسماعيلية أعياد استمرت يومى ١٧ و ١٨ نوفمبر ركب المدعوون من جديد بواخرهم يوم ١٩ وبلغوا السويس يوم ٢٠ نوفمبر . ولم يكتف إسماعيل بهذا بل طاف بضيوفه العظام أنحاء مصر يظهرهم على ما جدد فيها من حضارة تضارع حضارة أوربا . وقد كلفته هذه الأعياد الباهرة ، حسب التقديرات الرسمية ، أربعة ملايين من الجنيهات .

وانتهت الأعياد وأضواؤها الباهرة وابتساماتها الخلابة وأجال إسماعيل بصره يريد متابعة أعماله فإذا خزانة الدولة قفر ، وإذا هو فى أشد الحاجة إلى المال . ولم يكن يستطيع أن يقترض وهو مقيد فى عقد سنة ١٨٦٨ بألا يعقد قرضاً جديداً قبل مضى سنوات خمس . فلجأ إلى المرابين من جديد ولجأ إلى وسيلة تشبه ما يسميه الفلاحون اليوم : البيع على الوجه . فكان يبيع آلاف الأرادب من الغلال قبل زرعها ويقبض ثمنها ، فإذا جاء موعد التسليم أعطى ما يجبى من الضرائب غلالاً ثم اشترى الباقى بأسعار أعلى بكثير من الأسعار التى باع بها . ولجأ إلى غير ذلك من الوسائل المخربة حتى اضطر جلالة سلطان تركيا برغم ما أصاب وزراؤه من أموال إسماعيل أن يبعث له يحظر عليه الاقتراض بغير تصريح سابق منه .

لكن ذلك كله لم يوهن من عزيمة إسماعيل الصلب ولم يثن من إرادته . يجب أن يوجد المال للقيام بمشروعاته ولمضاعفة هذا البذخ الذى كان يعيش فيه والذى اضطره لنثر الذهب من الأبواب والنوافذ نثراً . وهل تراه يرضى أن يقول لرجل من أتباعه الذين يتولون تسليته أو لجارية من مئات الجوارى اللاتى كانت تترنم بأصواتهن قصوره : إن سيدكم قد عرف أخيراً كلمة المستحيل . كلا ! ليس هذا من خلق إسماعيل . فليعقد إذن قرضاً ترهن أملاكه الخاصة لسداده . وعقد بالفعل قرضاً خاصًّا فى سنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية ٧,١٤٢,٨٦٠ جنيه والمبلغ المتحصل منه بالفعل خمسة ملايين جنيه .

ومن سنة ١٨٧٠ بدأ يرمى بنظره إلى التوسع الاستعمارى . ولقد أصاب من ذلك حظًّا من النجاح غير قليل . ففيما بين هذه السنة وسنة ١٨٧٥ استصفى لمصر كل الشواطئ الشرقية من السويس إلى رأس غردفوى وحاصر بربر وزيلع . وفى سنة ١٨٧٤ ضم دارفور إلى مصر واحتل هرر . وقد أدى احتلال هرر إلى حروب مع الحبشة قتل فيها ابنه ، ولم يكن النصر فيها حليف جيوشه . على أن ذلك لم يصدها عن التوغل جنوباً إلى حدود الأوغندة . وكان من أكبر رجال إسماعيل المسئولين فى السودان صمويل بيكر والكولونيل جوردون . ولعل ذلك كان أول ما دعا إنجلترا لتفكر فى هذا القطر النائى ، وكان السبب فى السياسة التى رسمتها لنفسها فيه والتى أدت إلى مركز السودان الحاضر[1] .

وكانت هذه الأعمال ، وكان إسراف الحكومة فى مصر ، وكانت نفقات إسماعيل ومن حوله ، تجعل كل مبلغ ضئيلاً لا يقوى على سدادها . لكن إسماعيل باشا بدأ يرى هول الديون التى استدانها وبدأ يشعر بأن من الواجب التفكير فى السعى للتخلص منها . ولعله كان مخلصاً فى سعيه وإن كانت كل الوسائل التى ابتدعت لجلب المال لم تنجح فى أكثر من أن زادت الخديو مطامع وسرفاً . وأول ما أبدع من الوسائل قانون المقابلة . وخلاصته : أن ديون مصر إلى يومئذ كانت تبلغ ستة أمثال الضريبة العقارية . فإذا دفع الملاك ضعف الضريبة المضاعفة يعفى الملاك أبداً من نصف الضريبة التى عليهم . وقد دفع كثير من كبار الملاك والباشوات الضريبة المضاعفة بطلب ولى الأمر . وبدأت الحكومة فعلاً تسدد الدين السائر . لكنها لم تمض عليها سنة واحدة حتى كانت قد استدانت من جديد بسندات أصدرتها مكفولة بضريبة المقابلة ما قيمته اثنا عشر مليوناً من الجنيهات .

(١) الإشارة إلى نظام الحكم الثنائى الذى ظل قائماً فى السودان حتى حصل على استقلاله فى سنة ١٩٥٦ .

ولما كان موعد الخمس السنوات المحدد فى عقد قرض سنة ١٨٦٨ قارب الانتهاء رأى إسماعيل أن يستأذن الباب العالى فى قرض جديد يوحد به ديونه . واتفق فعلاً مع بيت أو بنهيم الذى أصدر قرض سنة ١٨٦٨ على أن يصدر قرضاً جديداً قيمته اثنان وثلاثون مليوناً من الجنيهات لهذا التوحيد . على أن كل ما حصلته الحكومة المصرية من هذا المبلغ كان ٢٠،٨٤٠،٠٧٧ جنيه . وكان الدين السائر وحده قد بلغ يومئذ ثمانية وعشرين مليوناً .

ثم إن الخديو كان قد اضطر إلى إنفاق مبلغ ضخم فى الآستانة للحصول على فرمان سنة ١٨٧٣ الذى وطد الوراثة فى بكر الأبناء على نحو ما صدر به فرمان سنة ١٨٦٦ والذى أتم لمصر استقلالها الداخلى حتى لم يبق لتركيا إلا أن تسك العملة باسم سلطانها وتتقاضى الجزية آخر كل سنة . وزاد هذا المبلغ فى مقدار الديون السائرة زيادة جعلتها تجاوز مقدار القرض الجديد بما يوازى نصفه . لذلك لم يفلح القرض فى سداد الدين السائر . واستمر إسماعيل على طريقته يصدر سندات جديدة أسماها فى هذه المرة سندات الرزنامة . وقد حصلت الحكومة من هذه السندات ٣،٣٣٧،٢١٠ جنيه فلم تكف هى الأخرى مضافة إلى الدين الجديد لسداد الديون السائرة ، ولم يبق أمام إسماعيل إلا بيع أسهم الحكومة فى قنال السويس . ولقد عرضها للبيع فى السوق العالمى . لكن إنجلترا جعلت المسألة ماسة بسياستها ووقفت فى وجه فرنسا واشترت الأسهم من إسماعيل بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات وتمت الصفقة فى عام ١٨٧٥ .

وفى هذا العام الذى أطل فيه الخراب محدقاً بعينيه البشعتين فى وجه إسماعيل تم تنظيم المحاكم المختلطة بعد معارضة غير قليلة من جانب فرنسا ، وافتتحها إسماعيل وهو مايزال يأمل فى أن أعمال الحضارة التى قام ويقوم بها فى مصر تسمح له أبداً بأن يجد من الدائنين من يثق به ، ناسياً أنه كان قد رهن كل إيرادات الدولة وكل

أملاكه الخاصة وأن الثقة به تزعزعت فى كل مكان . لذلك ما بزغت شمس سنة ١٨٧٦ حتى كان وقت الحساب قد آن ، وحتى أطفئت أنوار هذه الأعياد الدائمة وهذا النشاط العجيب الذى نشره إسماعيل لا فى مصر وحدها بل فى أرجاء كثيرة قريبة من مصر ونائية عنها : فى السودان وفى تركيا وفى فرنسا وفى إنجلترا وفى كل بلد حلت به رحاله أو كان له دائنون فيه .

سنة ١٨٧٦ ! نعم هى السنة العصيبة فى حياة إسماعيل لأنها السنة التى بدأ فيها الصراع العنيف بينه وبين أوربا مجتمعة . والعجيب أنه واصل هذا الصراع ومايزال واثقاً من نفسه ومن حيلته . لذلك كان إذا اضطر إلى الإذعان يوماً لم يكن ذلك منه حرصاً على الوفاء ولكن انتظاراً لفرصة النكث والأخذ بالثأر . لكن خصومه كانوا أقوى منه أضعافاً برغم أنه كان فى داره . وعلى الرغم من كل الوسائل التى لجأ إليها فقد انتهى آخر الأمر فأسلم نفسه للمقادير التى قضت بخلعه وإبعاده عن بلاده بقية حياته .

ومن عجيب سخر القدر من الناس أن إسماعيل هو الذى ألقى لأوربا بأول فكرة للتدخل فى شئونه وشئون مصر تدخلاً ينتهى فى أمره هو إلى الخلع ، وفى أمر مصر إلى الخضوع لنير أوربا أولاً وإنجلترا أخيراً . ذلك بأنه لما ثقل حمله وأيقن أن لا وسيلة إلى الاقتراض من جديد إلا أن تثق به أوربا أجال نظره صوب صديقته الصدوق فرنسا فألفاها ماتزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سنة ١٨٧٠ . عند ذلك فكر فى مصادقة إنجلترا وانتهز فرصة مرور ولى عهدها بمصر فطلب إليه أن يعين إنجليزياً مستشاراً للمالية المصرية . وكان جواب ولى العهد أن ذلك من شأن القنصل الإنجليزى . فبعث القنصل بخطاب إلى حكومته كطلب إسماعيل . وأهملت إنجلترا الخطاب حتى اشترت أسهم القناة . يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت إلى مصر ببعثة لفحص شئونها المالية وعلى رأسها المستر ستيفن كيف .

ولم يترك إسماعيل باشا وسيلة لاسترضاء المستر كيف ولجنته إلا بذلها . وقدمت اللجنة تقريرها إلى الحكومة الإنجليزية فامتنعت عن نشره بحجة أن النشر يزيد مركز الخديو حرجاً . ولقد نشر التقرير من بعد فتبين أنه لا يزيد المركز سوءاً وأنه على العكس من ذلك يبين للناس أن ما اقترضته مصر إنما أنفق أكثره فى أعمال مثمرة إن لم تظهر نتائجها بعد فهى على كل حال ضمان يمكن أن يعتمد الدائنون عليه . على أن التقرير استظهر دقة حال مصر وأشار بأن لابد من توحيد ديونها على قاعدة جعل الفائدة لها جميعاً ٧ فى المائة . ولم يعجب إسماعيل هذا الرأى وأراد المقاومة بتأجيل الدفع ولو كان من نتيجة ذلك إشهار إفلاسه أسوة بمتبوعه الأعظم سلطان تركيا . لكن سرعان ما أدرك خطر ما اندفع إليه فتلافاه بأن أصدر قانوناً فى ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الدين وبإنشاء صندوق خاص بعملياته . وصندوق الدين تعين الحكومة المصرية أعضاءه من الأجانب بالاتفاق مع دولهم . وهذه أول خطوة من خطى التسليم والخضوع لأوربا ولتدخلها فى شئون مصر الداخلية .

على أن الدائنين لم يرتضوا القواعد التى بنى عليها توحيد الديون فضجوا بالشكوى وطلبوا تعيين لجنة جديدة لفحص حالة مصر المالية . فذهب المستر جوشن والمسيو جوبير مندوبين عن الدائنين لإجراء هذا الفحص . وكان من أثر فحصهم أن صدر دكريتو ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ يفرق بين ديون الحكومة المصرية وديون إسماعيل الخاصة ويزيد فى اختصاص صندوق الدين وينشئ منصبى المراقبين العامين أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى يراقب أحدهما كل إيرادات الدولة ويراقب الآخر كل مصروفاتها ، وينشأ كذلك إدارة للسكة الحديدية مكونة من إنجليزيين ومصريين وفرنسى واحد ، على أن يكون الرئيس إنجليزيًّا . وبهذا الدكريتو أصبحت الحكومة المصرية فى يد صندوق الدين والمراقبين الأجانب وأصبح إسماعيل صورة لا يطلب منها إلا أن تكف عن الأذى . وبدأت هذه النظم الجديدة بالعمل وبدأ إسماعيل

يشعر بتلاشيه وانحدار سلطانه المطلق إلى هاوية الفناء .

أين كان الشعب المصرى فى أثناء ذلك كله ؟ لم يكن فى نظر إسماعيل شيئاً إلا أنه العبد المطيع الذى يفعل ما يؤمر به والبقرة الحلوب التى تدر الضرائب لإقامة الميزانية . ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة ، وإنما كانت ميزانيتها ما تتطلبه شهوات عاهلها الذكى القاسى . ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفى أن يقول إسماعيل : « أريد » لتتحرك كل الحكومة كى تنفذ إرادته . والناس على دين ملوكهم . فكان كل موظف فى الحكومة كإسماعيل شهوة وقسوة . وكان ما يطلبه إسماعيل يجبى من الناس أضعافاً مضاعفة سدًّا لشهواته وشهوات هؤلاء الجباة الجناة . والناس يجب أن يدفعوا أو يكوى الكرباج والسوط جلودهم ويدمغ جباههم . ويجب أن يدفعوا أو يلقى بهم فى غيابات السجن يذوقون فيها أشد العذاب .. ولم لا ؟ أليس عزيز مصر وولى أمرها يريد . (وأَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُم) . فمن عصى فعليه اللعنة وله العذاب . وأى عذاب وأية لعنة ! كان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين إلا قليلاً . فلم تكن بينهم وبين مصر وشيجة رحم أو عاطفة مودة أو قربى تحرك فى نفوسهم بإزاء المصريين المساكين معنى من الرحمة أو الإنسانية ، بل كانوا من الأكراد والجركس والأرمن والألبانيين . وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد على عقولهم أقفالها ، لا يعصون إسماعيل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

لذلك كان طبيعيًّا ألا يتحرك الشعب لتدخل الأجنبى فى شئونه . ولماذا يتحرك ؟ أليس حكامه هؤلاء أجانب عنه كالذين تدخلوا فى شأن الحكم سواء بسواء ؟ واختلاف العقيدة لا يكفى ليقوم شعب هدَّه الظلم وأضعف نفسه لينصر ظالمه على مخالفه فى العقيدة ، وبخاصة إذا انتظر من هذا المخالف رفع الحيف ووقف الظلم والأذى .

وبدأ إسماعيل يشعر بهذا ويحسه فى أعماق نفسه ، جلس حسيراً فى قصره مغلولة يده يشهد بعينى رأسه ماجر إليه بذخه وإسرافه من خراب ، وسمح لأذنه أن تسمع لأول مرة ما يضج به الناس من ألم وشكوى . وماذا يعنى الناس من قصور تشاد وحدائق تغرس وجسور تمد فوق النهر وألحان تعزفها الحسان إذا كان ذلك كله يشاد من دمائهم ويمد على أكتافهم ؟ وزاد إسماعيل شعوراً بالكارثة أن استنفدت أقساط الدين كل الضرائب التى جمعت على النحو الذى كانت تجمع به من قبل من وسائل الإرهاق ، ولم يبق منها شىء يدفع للموظفين ولا للجيش .

ورأى الدائنون بأعينهم هذه الحال البشعة فاتفق الرأى على تعيين لجنة جديدة لفحص جديد . وفى سنة ١٨٧٨ تعينت لجنة الفحص العليا أنشأها ذكريتو ٢٧ يناير من تلك السنة . وفى ٣٠ مارس صدر ذكريتو آخر يجعل للجنة أوسع السلطة . وتشكلت من مسيو دلسبس رئيساً ومن مستر ريفرس ولسن نائب رئيس ، ومن أعضاء صندوق الدين الأربعة . وبدأت اللجنة فحصها تحركها فكرة أساسية هى وضع قرار اتهام إسماعيل . وبعد انتهائها من الفحص قدمت تقريراً مبدئيًا كانت الفكرة السائدة فيه وجوب تحديد سلطة الخديو واعتباره مسئولاً عن حرج مركز مصر ، واقترحت لذلك إجراء إصلاحات فى التشريع المالى بالنسبة للضرائب وأن تخصص إيرادات أملاك الخديو كلها ومساحتها ٩١٧,٠٠٠ فدان لسداد ما يكون من عجز فى الميزانية .

تردد إسماعيل بادئ الرأى فى قبول هذه المطالبة ، لكنه رأى تردده لا يفيد شيئاً بعد أن أصبح الأمر كله للمراقبين ولصندوق الدين ، وأنه إذا قبل ما اقترح عليه فقد يفتح ذلك أمامه باباً جديداً للاقتراض من جهة ، ويترك له الوقت من الجهة الأخرى فى تدبير وسيلة للخلاص من هذه المراقبة التى غلت يده . وتحت ضغط نوبار باشا أعلن إلى المستر ريفرس ولسن فى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ قبوله

اقتراحات اللجنة . وفى ٢٨ أغسطس أصدر الأمر العالى المشهور بإنشاء وزارة (يحكم هو معها وبواسطتها وتكون متضامنة فى مسئوليتها) وشكل نوبار باشا هذه الوزارة واستعان فيها بالمستر ريفرس ولسن .

ومنذ طلب نوبار باشا إلى المستر ريفرس ولسن معاونته فى الوزارة قام الأخير بالمفاوضة لعقد قرض جديد تسد منه الديون السائرة ويسد عجز الميزانية . وقبل أن يوقع عقد القرض أصدر إسماعيل دكريتو ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧٨ ينزل أعضاء العائلة الخديوية للحكومة بموجبه عن أملاكهم العقارية وقدرها ٤٢٥,٧٢٩ فدان خلا العقارات ، واعتبرت هذه الأملاك ضامنة للقرض الجديد الذى دعى باسم قرض الدومين أو قرض روتشيلد .

وفى شهر أكتوبر أصبح المستر ولسن وزيراً للمالية والمسيو دبلنيير وزيراً للأشغال العمومية وألغيت بذلك المراقبة الثنائية على إيرادات الدولة ومصروفاتها على أن تعود إذا عزل هذان الوزيران الأوربيان من منصبيهما من غير موافقة إنجلترا وفرنسا . وجعلت هذه الوزارة المختلطة جل همها أن تسدد الديون وأن تتلافى عجز الميزانية . والواقع أن الديون السائرة بلغت مبلغاً ضاق دونه القرض الجديد على الرغم من أنه بلغ ثمانية ملايين . وكذلك وقفت الوزارة المختلطة بعد ثلاث سنوات من المراقبة المالية موقف الحكومات التى سبقتها وعجزت أن تواجه حرج المركز بخير مما واجهته غيرها من قبل ولجأت إلى الضغط والاضطهاد اللذين لجأت إليهما أشد الحكومات عسفاً واستبداداً . وزاد الموقف حرجاً أن رأى وزير المالية الإنجليزى الاستغناء عن ألفين وخمسمائة ضابط من غير أن يدفع لهم متأخرات رواتبهم لأكثر من سنة كاملة . هنالك هاجوا وقاموا ومن بينهم أحمد عرابى فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ بمظاهرة خطيرة وأحاطوا بنوبار وولسن وأهانوهما وأوسعوهما ضرباً . ولما نمى الخبر إلى إسماعيل جاء بنفسه . فلما رآه الضباط وأمرهم بالانصراف لم يعص أمره منهم

أحد مما دل على أن له فى تدبير هذه الفتنة يداً . وقد ثبت بعد ذلك أنه كان المدبر لها بالفعل بأن أوعز إلى أكثر الضباط إقداماً وجرأة بالقيام بها .

وكان من الضباط الذين قاموا بهذه المظاهرة ومن الذين استغنى عنهم ريفرس ولسون عدد غير قليل من المصريين الصميمين . ولعل ذلك هو الذى أدى إلى استمرار الحركة فى المستقبل والذى كان نواة الثورة العرابية . فإن الموظفين والضباط من الشركس والأتراك والأرمن وغيرهم – ممن كان بيدهم الأمر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب – شعروا بفشلهم وبعجزهم إذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة . ثم إن ريفرس ولسن تقدم بسبب آخر أدى إلى تحرك العناصر القومية الصميمة فى البلاد . فقد طلب إلى الحكومة أن تعلن أن مصر مفلسة كى تعامل معاملة المفلس فى شأن ديونها . هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبراؤها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديو برنامجاً مالياً يخالف برنامج ولسن محتجين على القول بإفلاس مصر . ولم تكن يد إسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج . ثم لم يكتف النواب ببرنامجهم الذى تقدموا به ، بل تقدموا كذلك بعرض للخديو يبينون فيه استياءهم من الوزارة لعدم اكتراثها بآرائهم . وانضم الخديو لهذه الحركة وعضدها ، لأنه رأى فيها الوسيلة الوحيدة لعود بعض سلطته إليه بعد أن تقلص ظلها وانتقلت إلى أيدى الأجانب . وبلغ من تعضيده إياها أن رفض النواب الارفضاض لما جاء رياض باشا وزير الداخلية يعلن إليهم انتهاء الدورة . وكذلك أصبح هذا المجلس الذى خلقه إسماعيل فى سنة ١٨٨٦ صورة يوهم بها الدول الأوربية أن مصر أصبحت بالفعل جزءاً من أوربا وقد شعر بوجوده وقدر مكانته . فقد احتج فى ٢٩ مارس سنة ١٨٧٥ على الوزارة المختلطة لأنها لم تكن تعترف بوجوده وبمسئوليتها أمامه . وفى ٥ أبريل طلب إلى الخديو تعديل قانون الانتخاب وإعلان مسئولية الحكومة أمام مجلس النواب . ولم يقف عند ذلك

بل احتج على بقاء الوزارة المختلطة وبالتالى على وجود ولسن ودبلنيير فيها . ولم يلبث إسماعيل أن أبلغ هذا الاحتجاج حتى عزل الوزارة وعهد إلى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة . وفى الشهور الثلاثة التى انقضت بين توليها وخلع إسماعيل بدأت بوضع قانون للانتخاب ، كما نشرت فى ٤ يونية لائحة مجلس شورى النواب الأساسية وفيها تقرر الحصانة البرلمانية وتحدد عدد النواب وتنص على المسئولية الوزارية ، ومع أن هذه الوزارة كانت جادة فى عملها ، ومع أنها سبقت هذا التشريع النيابى بتشريع مالى صدر به دكريتو بتاريخ ٢٢ أبريل سنة ١٨٧٩ يكفل للأجانب حقوقهم ويقر المراقبة الثنائية وصندوق الدين فى اختصاصها الواسع فإن أوربا بدأت تشعر بأن مصر على وشك انتقال خطير ليس من العسير تقدير مدى نتائجه ، وإن خيراً للمصالح الأوربية الوقوف فى سبيله . فبدأت ألمانيا والنمسا بالاحتجاج فى ١٨ مايو على دكريتو ٢٢ أبريل بدعوى أنه مخالف لتعهدات مصر الدولية وألقتا مسئولية هذه المخالفة على الخديو . وفى ١٨ يونيو احتذت وزارتا باريس ولندرة مثال ألمانيا والنمسا . وقد حاول إسماعيل القضاء على هذه الحركة الدولية فطلب موافقة الدول على الدكريتو ، لكن حركته هذه لم تنجح .

وكانت الدول قد سئمت هذا الصراع الطويل مع إسماعيل . ولعلها كذلك خشيت بعد انضمامه للأمة وإظهاره العطف كل العطف على مطالبها ، أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح إسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة سلطان . لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش . لكن إسماعيل لم ينظر إلى المسألة هذه النظرة وأراد أن يلجأ إلى جلالة سلطان تركيا آملاً أن يكون لما قدمه له من طائل الأموال وعظيم التضحيات بعض الأثر . وهنا خاب فأله . فقد بعث الباب العالى فى ٢٦ يونيو تلغرافاً بعزل إسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه . وعلى أثر ذلك أقلع إسماعيل من الإسكندرية قاصداً إيطاليا وقلبه خافق

وعيونه هامية بالدمع . وأقام فى إيطاليا زمناً ثم انتقل إلى الآستانة إذ أقام بها فى قصر «أمر جيان» على شواطئ البوسفور حتى جاء أجله فى ٢ مارس سنة ١٨٩٥ .

* * *

وكم دار بخاطره فى هذه السنوات الأربع عشرة التى انقضت بين عزله وأجله أن يعود إلى نضال يسترد به عرشه . وكان أول ما صنع من ذلك أن بعث إلى السلطان بالآستانة على أثر وصوله إلى نابولى رسالة حارة يذكر له فيها ما أجرى من عظيم الإصلاح فى وادى النيل وما قام به من فتح السودان إلى خط الاستواء حيث خفقت الراية العثمانية من تلك الأنحاء فى ربوع لم تخفق من قبل قط عليها . لكن السلطان لم يعبأ بخطابه ولا أجابه عنه . بل نسى كل ماضى إسماعيل وما أغدقه على الآستانة ورجالها من مال وأنعم . وما باله يعبأ به وقد أصبح لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ولا يملك لمتبوعه العظيم رشوة ولا هدية . وأصحاب العروش لا يعنون إلا بصاحب القوة مادامو يهابون قوته ويطمعون فى خيره ومعونته . ونال ذلك من نفس إسماعيل ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العرابية فى مصر . هنالك حز الألم فى نفسه واذكر أنه لم يفكر فى مقاومة كالتى قاومها اليوم هؤلاء المصريون الأبطال . ولو أنه قاوم فربما كان له من الأقدار عون يستبق نجمه عالياً . أما ولم يفعل فليس له أن يرجو من الأقدار مدداً وهى لا تمد الضعيف أو الخائف وإنما تحارب فى صف الشجاع المقدام .

ومنذ دخل الإنجليز مصر محتلين خيم اليأس على كل آماله فى استعادة ملكه . فظل فى إيطاليا حتى انتقل إلى الآستانة ليلقى فيها منيته وليكون فيها أسير عطف الأتراك الذين طالما تمتعوا بما أغدقه عليهم من مدد ومال أيام ولايته .

الخديو توفيق باشا

ثلاثة عشر عاماً تولى فيها توفيق أمر مصر كان خلالها فى زهرة شبابه بين السابعة والعشرين والأربعين . لكنه كان فيها كذلك بين عوامل لا يستطيع مدافعتها والتغلب عليها إلا نابغة محنك . كان فيها بين تركيا الناقة لضعف سلطانها فى مصر ، وإنجلترا الطامحة إلى بسط نفوذها نهائيًّا على وادى النيل ، وفرنسا المكتئبة لتقلص مكانتها رويدا رويداً من أرض الفراعنة ، والأمة المصرية المثقلة بديون إسماعيل باشا وظلم حكامها والمتأججة نفوس أهلها بالثورة طمعاً فى الاستقلال والدستور . وهو بين هذه العوامل رجل يشعر بضعة أمومته ويحقد أهله عليه ، ويود لو أنه كان فى مكانة أبيه بطشاً وسلطاناً ، ويخضع للأقدار التى لم تهبه من سعة الذكاء ما وهبت غيره ، ولتربيته الشرقية البحتة التى اقتضت ألا يغادر مصر وألا يتصل بالمدنية الأوربية اتصال إخوته ، وللظروف التى جعلت تتقاذفه منذ ارتقى عرش أبيه فتصدمه بكل

واحد من العوامل المحيطة به ، لينتهى به الأمر إلى أن يكون فى تاريخ مصر صورة غير محبوبة ، ولا ممقوتة ، صورة مرت فى هذا التاريخ فكان أثرها فيه سلبيًّا هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير . وليودع العالم فى الأربعين من عمره فيلقى بمصائر مصر بين يدى ولى عهده الفتى عباس وما يزال فى الثامنة عشرة من عمره .

* * *

ولد توفيق باشا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ ثمرة لبرهة هوى من إسماعيل مع إحدى جواريه التى لم تنل منه إلا حظوة قصيرة ولم تكن له زوجاً . ولم يكن إسماعيل يومئذ وارثاً لعرش سعيد أن كان أحمد أكبر العائلة ما يزال حياً . لذلك لم يلفت مولد توفيق نظر أحد إلا ما كان من زراية أميرات العائلة المالكة لأمه . فلما حصل إسماعيل على فرمان وراثة العرش للولد الأكبر انقلبت الزراية للأم حقداً على الابن . وشارك إسماعيل أهله فى عدم عطفهم على توفيق وإن لم يبلغ ذلك من نفسه مبلغ حقده على حليم باشا وارث عرشه على النظام القديم . وثبت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته إياه فى عزمه على أن يكون عرشه لحسين من بعده . وقد كان يستطيع ذلك اعتماداً على أمومة توفيق أو بالتخلص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر فى تركيا ، لكنه لم يكن يتعجل النظر فى أمر لم يكن فى حسبانه وقوعه قبل زمان طويل . وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه فى قصر له مقتصراً على إدارة أراضيه .

على أن عزلة توفيق وعدم إغداق أبيه أسباب الرضا عليه جعله ينظر إلى ما صنع أبوه من استدانة ومن إرهاق للمزارعين والفلاحين ومن بطش بالناس جميعاً نظرة مصرى لا نظرة ولى عهد . لذلك اتصل بطائفة من الناقمين على الحال التى آلت مصر إليها ، أمثال السيد جمال الدين الأفغانى واللقانى والشيخ محمد عبده ومن كان يلوذ بهم من أمثال عرابى ، وانخرط فى سلك الماسونية الذى انخرطوا فيه . فلما اضطر إسماعيل تحت ضغط الدائنين إلى أن يعين نوبار باشا رئيساً للوزارة المسئولة الأولى

وأن يضم إليه مستر ريفرس ولسن ومسيو دبلنيير ، الأول وزيراً للمالية والثانى وزيراً للأشغال ، ثم لما رأى أن الحال المالية فى البلاد تزداد كل يوم سوءاً برغم ما تنزل عنه من سلطته ومن أملاكه ، ورأى الشعور العام ضد التدخل الأجنبى يزداد فى البلاد كلها ، خلع نوبار من الوزارة واتفق مع فرنسا وإنجلترا على تعيين ولى عهده توفيق باشا رئيساً للحكومة . على أن ولى العهد كان يعلم دقة الموقف كما يعلم بنوع خاص تهيج الشعور العام بإزاء ما كان يعتزمه السير ريفرس ولسن كعضو فى لجنة التحقيق الدولية من إعلان إفلاس مصر . لذلك لم يجد الوزيران الأوربيان من رئيس الوزارة الجديدة مؤيداً قويًّا لها . وعلى أثر إعلان وزير المالية تأجيل دفع الفوائد المستحقة للدائنين فى شهر أبريل تقدمت عريضة من العلماء والوجهاء والنواب ورجال الجيش يحتج فيها مقدموها على هذا التصرف ويطلبون إلى الخديو أن يلجأ إلى نوابه للخروج من المأزق ، وعلى ذلك استقالت وزارة توفيق من غير أن تفعل شيئاً ، وكلف إسماعيل شريف باشا بتأليف وزارة تكون مسئولة حقيقة أمام برلمان تنظم حقوقه وطرق الانتخاب له بحيث يستطيع أن يقوم بما تقتضيه الأحوال وأن يحقق الأمانى القومية .

وكان ذلك هو الانقلاب الحكومى الذى أريد به القضاء على سلطة المراقبين وعلى تدخل الأجانب فى الإدارة المصرية ، والذى انتهى بتركيا إلى عزل إسماعيل باشا فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وإلى إرسال برقية فى اليوم نفسه إلى توفيق باشا تعلن فيها إسناد منصب الخديوية المصرية إلى جنابه ويختتمها وزير تركيا بقوله : «والأمر والقرمان فى كل حال لمن له الأمر أفندم» .

كانت هذه الضربة الحاسمة غير المنتظرة من جانب تركيا منبهة لكل من يعنيهم أمر مصر وكل من لهم مصالح فيها لكى يقفوا على حذر . ومع أن توفيق باشا فوجئ بالخبر وفزع له حتى لقد قابل موظف قصره الذى أبلغه إليه أسوأ مقابلة بأن صفعه ،

فإنه شعر من ذلك الحين بأن التركة التى آلت إليه أعباؤها تركة مبهظة مخوفة . ترى ماذا عساه يصنع بإزاء أبيه ، وبإزاء تركيا ، وبإزاء الدول وتدخلها فى شئون مصر ، وبإزاء الأمة المصرية المتوثبة للحركة بل للثورة ؟

أما إسماعيل فأيقن أن لا مفر له من الانحناء لعاصفة لم يكن يستطيع مواجهتها وإن لم ينقطع رجاؤه فى العود يوما ما إلى هذا العرش الذى انتزع منه اغتصاباً . لذلك قابل الصدمة بكل ما يستطيع رجل فى عظمته وفى قوته أن يواجهها به ، وأظهر من العطف على ولى عهده ما لم يكن له من قبل به عهد . وفى الأيام التى انقضت ما بين تبوؤ توفيق عرش أبيه وسفر إسماعيل من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف الأبوة والبنوة بينهما كخير ما يمكن أن تكون فى مثل هذا الظرف العصيب .

اطمأن توفيق إذن من هذه الناحية . ولقد أظهر من عواطف البنوة ما دفعه للتنازل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية لأبيه كى تبلغ مرتباته خمسين ألف جنيه . ولمناسبة رفع مرتبات البيت الخديو إليه أراد فى نفس الوقت أن يظهر للأمة حرصه على مصلحتها ومشاركته إياها فى متاعبها المالية فأمر بإلغاء الراتب المعين لوالدته وحرمه وقدرهما خمسة وخمسون ألف جنيه .

بعد ارتقاء توفيق العرش جعلت تركيا تفكر فى الاستفادة من الانقلاب بأن تسترد ما كسبته مصر بفرمان سنة ١٨٧٣ الذى جعلها مستقلة استقلالا داخليًّا تامًّا فيما عدا سك العملة ودفع الجزية ، وقد أثار هذا الخبر فى مصر قلقاً غير قليل . على أن فرنسا وإنجلترا عارضتا الباب العالى فيما أظهره من عزمه وأنبأتا ممثليهما فى مصر بأنهما معتزمتان فيما إذا لم يكرر السلطان أحكام فرمان سنة ١٨٧٣ فى الفرمان الذى يوجهه إلى الخديو توفيق أن تطلبا الاستقلال التام لمصر . وقد اختلف فى الأسباب التى دعت تركيا إلى هذا التصرف : أهى كانت تريد بالفعل إلغاء الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها مصر فى أثناء ولاية إسماعيل باشا أم هى كانت

تذرع بالمطل والتسويف للحصول على مبلغ من المال بدليل أنها قطعت فى ذلك الوقت حوالة على مصر أبت الحكومة المصرية قبولها بسبب ارتباكها المالى . على أن هذا التسويف طوع لفرنسا ولإنجلترا أن تتدخلا وأن تطالبا الباب العالى بإبلاغها فرمان تولية الخديو كوثيقة دولية وأن تثبتا بذلك حقوقها فى التدخل فى شئون مصر للمحافظة على حقوقها بإزاء تركيا استناداً على ما كان من تدخلها للمحافظة على مصالح رعاياهما الدائنين للحكومة المصرية . وكان من أثر ذلك أن شعر توفيق بما للدولتين من فضل عليه بسبب محافظتهما على حقوقه وحقوق البلاد التى ولى عرشها .

ولم يصل الفرمان بتولية الخديو الجديد إلا بعد شهرين من ارتقائه عرش أبيه . أى فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ .

خلال هذين الشهرين كانت خطة توفيق غامضة ما تزال . فهو حين ارتقى العرش كان فى زمرة الماسون الذين يناصرون الحرية والعدالة . لذلك وجه خطابه إلى شريف باشا لتشكيل الوزارة الأولى فى عهده مقدراً للأمة معتمداً عليها ذاكراً « إنى عظيم الميل لبلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الأمة التى أظهرت السرور بولايتى عازم عزماً أكيداً على التماس أحسن الوسائل لإزالة الاختلال المفسد لكثير من المصالح . . . إلا أن إدراكى لهذه الغاية التى هى موضوع آمالى يتوقف على مساعدة الأمة بجملتها » .

وتحقيقاً لهذه السياسة تألفت لجان من الأوربيين غايتها تقديم العرائض إلى قناصلهم يلتمسون بها من دولهم منع تدخل الأجانب فى أحوال مصر وقصر النظر فيها على الوطنيين . ثم إن توفيق باشا تحدث فى ذلك الظرف إلى مكاتب التيمس فأشار بادئ ذى بدء إلى أنه لا يبرح مقيد اليد فى العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه . لكنه مع ذلك صرح للمكاتب بأنه لا يريد الرجوع إلى تعيين وزراء أوربيين ، بل ينبغى أن تكون الوزارة مصرية وطنية يصح أن يعاونها رجال من الأوربيين فى

الإدارات على أن يكونوا موظفين مصريين لا أكثر . أما سير ريفرس ولسن ومسيو دبلنيير شخصياً فقد صرح توفيق بأنه يعارض أشد المعارضة فى رجوعها أياً كانت صفتها ، لأن رجوعها يكون مخالفاً لمصلحة مصر على خط مستقيم . وطلب الخديو إلى الدول فى حديثه هذا أن تمهله بضعة أعوام « فنحن فى مقام الامتحان فلا يحسن بأوربا أن تمسك على وعلى مصر طريق النجاح »

وكان من أثر هذه الخطة وتلك التصريحات أن هدأت أعصاب المصريين التى كانت متوترة فى الأيام الأخيرة من عهد إسماعيل . فعلى الرغم من عزل الحكومة عشرة آلاف من الجند المجتمعين تحت السلاح وإنقاص الجيش العامل إلى اثنى عشر ألفاً وتأخير صرف مرتبات الكثيرين ، أمسك الرجاء بالناس عن أن يلجأوا للهياج . لكن نيات توفيق باشا الديموقراطية لم تلبث إلى أكثر من وصول الفرمان بتثبيته على عرشه . فى مساء اليوم الذى عاد فيه مندوب السلطان الذى كان يحمل هذا الفرمان قافلا إلى تركيا بعد حفلة تلاوته أقيلت وزارة شريف باشا وألف توفيق باشا وزارة تحت رئاسته مباشرة . والحجة التى روجت تبريراً لهذا التصرف إنما هى إرادة الخديو تعجيل الإصلاح . أما الحقيقة فعدم رضا توفيق عن ميول شريف باشا الدستورية ، ففى الخطاب الذى أرسل به الخديو إلى كل من وزرائه الجدد معنى قصده العودة إلى حكومة الفرد . فيه تكليف لكل من النظار أن يحضر أوراق شئون وزارته ومعلوماتها عند حضوره إلى المجلس لعرضها . على أن توفيق كان يشعر بأن الأمة لا يمكن أن ترضى عن هذه الحال . لذلك بعث بتلغراف إلى رياض باشا الذى كان متغيباً هو ونوبار باشا . أو قل منفيين فى أوربا ، يستقدمه إليه لعلمه بعدم سيل هذا الوزير إلى حياة الشورى ، فلما حضر فى أوائل سبتمبر عهد إليه بتشكيل الوزارة وقطع على نفسه العهد باحترام إرادة ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ التى قررت مبدأ مسئولية الوزارة وتضامنها . وبعد ثلاثة أشهر من استقرار هذه الوزارة فى مناصبها زار

توفيق ، جرياً على سنة أسلافه ، أنحاء ملكه فى الوجهين القبلى والبحرى وقضى فيها أشهراً وعاد منها فى أوائل مايو سنة ١٨٨٠ .

وكان الهدوء شاملا أنحاء مصر فى هذه الفترة . لكنه كان هدوء تربص وانتظار . ذلك بأن المسألة الشائكة التى انتهت بعزل إسماعيل كانت تحت البحث منذ أول ولاية توفيق ، وكانت لا تؤذن بخير كثير. فعلى الرغم مما أعلنه الخديو لمكاتب التيمس من المعارضة فى عودة ولسن ودبلنيير بعد فشل سياستهما المالية فى مصر لم تر الحكومة الفرنسية بعد اتفاقها مع حكومة مصر على إعادة المراقبين أن يعين أحد غير مسيو دبلنيير . أما الحكومة البريطانية فأشارت بتعيين السير بارنج (لورد كرومر) وتم تعيين المراقبين فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وباشراعمليهما وانتهيا بتقديم تقرير إلى الخديو فى أواخر عام تعيينهما يقترحان فيه تعيين لجنة تصفية للدين المصرى كله. وبعد محادثات بين الدول صاحبات الشأن تعينت اللجنة فى ٣١ مارس برئاسة السير ريفرس ولسن وتعهدت الدول بقبول قراراتها . وإذن فقد رأى توفيق نفسه بإزاء حالة كان يراها أول جلوسه على العرش مخالفة لمصلحة مصر على خط مستقيم من غير أن يستطيع لها نقضاً .

وقدمت لجنة التصفية تقريرها فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ فأصدره الخديو فوراً وأطلق عليه اسم قانون التصفية . وعلى موجب هذا القانون بلغ دين مصر ٩٨,٧٤٨,٩٣٠ جنيهاً . وقد روعيت فى هذا القانون ، كما روعيت فى كل تصرفات ممثلى الدول الأجنبية مصالح الدائنين الأجانب على حساب نظام الحكم فى مصر ، وبالرغم مما كان يعلمه المراقبون وغير المراقبين من أن أكثر من نصف هذا الدين لم يدفع إلى مصر لم يفكر أحد فى إلزام الدائنين بالتنزل عن شىء من الديون الاسمية التى كانوا يقتضونها من مال المصريين ومن دمائهم . ولما كان تدخل الأجانب مثيراً لعواطف المصريين فى عهد إسماعيل فقد بدأت هذه العواطف تثور من جديد بعد

هدأة التربص وبدأت العاصفة تتكور فى الجو لتؤذن بالانفجار عما قريب .

وبدأت نذر الانفجار بما كان من تبرم رجال الجيش تبرماً سببه امتهان العنصر المصرى فيه لمصلحة الأجانب من الأتراك والجراكسة . فلما سرح إسماعيل باشا فى أواخر أيامه ألفين وخمسمائة من الضباط أكثرهم مصريون كان إخوانهم يشعرون بالألم من أجلهم ويخشون أن يصيبهم مثل نصيبهم . على أن ارتقاء توفيق إلى العرش واستيزاره شريف باشا هدأ الحالة زمناً . فقد ظن الناس أنهم حاصلون على هيئة نيابية خير من شورى النواب القديم تراقب الحكومة وتمنع تدخل الأجانب وتعيد العدل إلى نصابه . فلما عين رياض باشا وعين معه فى وزارة الحربية شركسى قح هو عثمان رفقى ، يمقت المصريين ويمتهنهم ، ولما تكشفت نيات الخديو ووزارته عن العدول عن الحكم النيابى بل عن شورى النواب نفسه ، ثم لما بدئ بتنفيذ قانون التصفية وتبين أن حال مصر المالية لم تغد منه خيراً — لما حدث ذلك كله كان المدنيون وكان رجال الجيش تغلى فى صدورهم مراجل الحقد وتتأجج نفوسهم بنيران الثورة .

وعجيب أن يحدث ذلك كله بأعين توفيق فلا يراه ولا يقدر مداه ، بل يندفع فى التيار العجيب الذى اندفع فيه مخالفاً بذلك كل ما أظهره من الميول أول جلوسه على عرش أبيه . فهذا الميل الشديد لتحقيق آمال الأمة وهذا الاعتماد على معاونتها قد انقلب فجأة عقب وصول الفرمان إلى إعادة حكومة الفرد ثم إلى إسناد الوزارة لنصير قوى من أنصار النظام المطلق . وهذا الحرص على معارضة عودة ولسن ودبلنيير وعلى أن تكون الوزارة مصرية وطنية ، وهذه الدعوة لانتظار أوربا نجاح السياسة الوطنية الجديدة قد انقلب فجأة إلى قبول هذين الشخصين وغيرهما من الأشخاص ، وإلى ترك التدخل الأجنبى يتوغل فى إدارة البلاد وهذه السياسة المالية التى فشلت على يد ولسن قد انقلبت فجأة سياسة الحكومة المصرية ليصدر على

موجبها قانون التصفية . وهذه الانقلابات كلها قبلها توفيق راضى النفس مطمئناً . على أن لهذا العجيب فى نظرنا تفسيره الواضح : فتوفيق الضعيف قد رأى ما حل بأبيه حين عارض إنجلترا وفرنسا فيجب ألا يعارضها وإنجلترا وفرنسا تريدان هذا النظام فيجب أن يريده ليتمخض ذلك كله عن انفجار أو عن ثورة أو عما يمكن أن يتمخض عنه ، فليس توفيق الضعيف هو الذى يطالب بالتفكير فى هذا . ويكفيه أن يعتمد فى بقائه فى عرشه على سند الدولتين اللتين استخلصتا له من تركيا فرمان توليته .

وكان يسيراً أن يرى توفيق نذر الانفجار آتية من ناحية رجال الجيش . ذلك بأنه فضلا عن تسريح ألوف من الجند ومئات من الضباط فى آخر عهد إسماعيل وبالرغم من تسريح عشرة آلاف جندى أول ولايته ، فإن تنفيذ قانون التصفية أسفر عن عجز الميزانية اللازمة لنفقات الدولة فى سنة ١٨٨١ عجزاً بلغ مقداره ١٦١٠٠٠٠ جنيه ، بينما كان متوافراً فى صندوق الدين بعد دفع الفوائد مبلغ ٨١٣٠٠٠ جنيه أنفقت فى استهلاك السندات بدلا من أن يسدد منها ذلك العجز . وقد ترتب على هذا أن بقى كثيرون من الموظفين ، ومن بينهم رجال الجيش ، لا يتقاضون مرتباتهم . أضف إلى هذا أن رفقى باشا ناظر الحربية أصدر لائحة مقتضاها عدم ترقية المصريين إلى الدرجات التى يستحقونها ، بينما يرقى الجراكسة إلى أكثر مما يستحقون . ولما كان للضباط المصريين جماعة سرية بين أعضائها أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وكانوا قد قدموا لرياض باشا طلبات بالإصلاح منذ شهر مايو سنة ١٨٨١ لم تنظر الحكومة فيها ، فقد قرر هؤلاء دفع آلايات الجيش للاحتجاج على تصرفات رفقى باشا وعلى المطالبة بعزله . ورفعت بالفعل عريضة للخديو متضمنة هذا الاحتجاج .

وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى وزارة رياض على اتصال

بهؤلاء الضباط . لذلك تيسر لهم أن علموا بعد احتجاج الجيش أن الحكومة تريد محاكمة الثلاثة الذين ذكرنا أسماءهم وأنها أمرتهم بالذهاب إلى قشلاقات قصر النيل فى أول فبراير سنة ١٨٨١ لتقبض بعد ذلك عليهم . فما كادوا يذهبون وما كاد يقبض عليهم ويجردون من رتبهم ويسجنون حتى كانت آلاياتهم قد حضرت وأنقذتهم من سجنهم بقوة السلاح .

وسار الضباط الثلاثة على رأس آلاياتهم من قصر النيل إلى عابدين وهناك وقف عرابى بين الجند خطيباً فشكرهم على إخلاصهم له وإنقاذهم إياه . ثم تقدم إلى الخديو يطلب العفو عنه وعن زملائه ، وخلع عثمان رفقى من نظارة الحربية ، وأردف عبارته هذه بقوله : إنهم لا يبرحون إلا بنيل بغيتهم . ولما كان توفيق قد رأى كل الأوامر التى أصدرها إلى ضباط الجند لا تنفذ ، ورأى نفسه فى مأزق لا يعرف سبيلا إلى النجاة منه سارع إلى إجابة طلب العصاة وأقال عثمان رفقى من الحربية وعين مكانه صديق الضباط المنتقضين محمود سامى البارودى .

لو أن توفيقاً كانت له سياسة معينة يومئذ لما وقع حادث قصر النيل . لكنه كان مضطرب الرأى والسياسة جميعاً لأنه كان يشعر ، كما قدمنا ، بأن سنده الأخير ليس تركيا وليس الأمة المصرية مادام حليم باشا وارث العرش على النظام القديم مقيماً فى الآستانة يدس لإلغاء وراثة الابن ويعاونه أنصار من الساسة والأميرات ، ومادام هو لا يريد أن يعتمد على الأمة أو ينيلها شيئاً من الحقوق التى تشعرها بكيانها . على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيقا درساً فى وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائماً معرضاً للتصادم مع القوى المختلفة المحيطة به . فمع شعوره بأن أباه اضطر للاستعانة بالأمة ولو استعانة صورية ممثلة فى مجلس شورى النواب ، فقد ظل حفيظاً على مبدأ الحكومة المطلقة ثم إنه إلى جانب هذا كان قد بدأ يتخوف رياضاً لقوته وشدة سلطانه على الرغم من مشاركة رياض إياه فى تأييد النظام المطلق .

لذلك بدأت الوزارة تضعف شيئاً فشيئاً على حين بدأ المتمردون من رجال الجيش يزدادون قوة على أثر انتصار يوم قصر النيل وينضم إليهم كثيرون من غير العسكريين ويجاهرون جميعاً بضرورة تشكيل مجلس النواب. وكان سامى البارودى من أصحاب هذا الرأى ومن أقوى المحركين لعرابى ومن معه ، بل كان هو روح الحركة ومحورها.

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديو بمعارضة عنصر قوى فى البلاد لها فإنه أراد أن يقاوم هذه المعارضة بالشدة. لذلك عمد إلى عزل سامى البارودى من وزارة الحربية وإلى تعيين صهره داود باشا يكن مكانه. وأراد داود باشا قمع الحركة فأمر بمنع اجتماع الضباط وبث عليهم الأرصاد والعيون. ولما عاد الخديو من الإسكندرية أمر الوزير الجديد بإجراء تنقلات بين الآلايات شعر معها عرابى وأصحابه بأن المراد تشتيتهم للتنكيل بهم بعد ذلك ، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبلغوا الخديو بأن الجيش سيحضر بتمامه إلى عابدين لإبداء اقتراحات تتعلق بنظام الحكم فى البلاد وبشئون الجيش وتحسين حاله.

ترى ماذا يفعل توفيق بإزاء هذه الحركة وهى حركة تمرد عسكرى صريح. أتراه يترك الأمر لوزارته فيصرح أن عليها حفظ النظام والأمن؟ أتراه يدعو إليه كبار رجال الدولة وأعيانها فى مجلس عام لينظر فى الأمر؟ أتراه يأمر بتجريد المتمردين من رتبهم وألقابهم لكيلا يكون لوزارته ولا لغيرها من رجال البلاد عليه فضل ويقف صلباً ينتظر النتائج كائنة ما تكون؟ كلا! فهذه كلها حلول تحتاج إلى عزيمة وإلى قوة جنان وإلى شعور بالمسئولية واستعداد لمجابهة الخطر وجهاً لوجه. وتوفيق الضعيف لا يملك شيئاً من هذا. لذلك عمد إلى وسيلة عجيبة لا يعمد إليها سياسى. أخذ وزراءه وتوجه بهم إلى حيث تعسكر الآلايات المتمردة يحقق معهم ويستعطفهم. ثم ذهب بنفسه إلى القلعة حيث ألاى عرابى ليرجوه ألا يفعل ما اعتزم فعله لكنه وجد عرابى قد سبقه إلى عابدين فعاد هو الآخر أدراجه إليها.

وهناك فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ قام عرابى على رأس الجيش ممتطياً جواده مستلا سيفه ووقف توفيق فى شرفة عابدين يحيط به وزراؤه وقناصل الدول .

وبأمر توفيق أغمد عرابى سيفه وتقدم بمطالبه ، وهى إسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الإسلام . وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهم مطالب الجند . وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فوراً إليه وأمرهم بالانصراف لكى تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب . لكن الخديو اضطرب لساعته ورفض الطلبات جميعاً مواجهاً خطر النداء بعزله وإعلان الجمهورية فى مصر على نحو ما كان يدور برأس عرابى وأصحابه . لكن وزراءه وقناصل الدول أشاروا على الخديو بالعود إلى داخل السراى خشية أن تعجل مواجهة ما بين الرجلين الحوادث . وصار مستر كولفن القائم بعمل المراقب الإنجليزى وقنصلا إنجلترا والنمسا رسلا بين الخديو وعرابى . وتصلب عرابى التصلب كله وأشار بعض الحاضرين على الخديو ، ومن بينهم مستر كلفن ، أن يتشبث بالرفض مؤكدين أن لن يصل رجال الجيش إلى أكثر من المظاهرة التى قاموا بها . لكن الخديو أوصله ضعفه وعدم احتياطه إلى التسليم فسقطت وزارة رياض لساعتها ووعد الخديو بتنفيذ باقى المطالب بالتدريج ، ودعا إليه شريف باشا كى يشكل الوزارة الجديدة . ورفض شريف بسبب ما أمامه من المصاعب وأخصها تمرد الجيش وعدم طاعته الأوامر . فلما أظهر عرابى استعداده ورجاله للامتثال وللطاعة ، ولما جاء عمد البلاد فكفلوا عرابى فيما قاله ، ثم لما استشار شريف حكومة تركيا وحكومات إنجلترا وفرنسا وكفل معاونتهم جميعاً ، بعد كل هذا شكل الوزارة وأمر الضباط الثلاثة بأن يتفرقوا فى أنحاء مختلفة من القطر وبعث بعرابى إلى رأس الوادى وباشر الحكم فى حزم وأناة كانت البلاد يومئذ بحاجة أشد الحاجة إليهما .

وآنس توفيق نفسه فى عزلة بعد ما أذعن إلى الاستعانة بشريف الذى كان قد أقصاه عن الحكم يوم طمع فى الحكم المطلق على أثر وصول الفرمان بتثبيته فى عرشه . وأحسبه هذه المرة كان يود أن تطول عزلته وأن تظل الحكومة عاملة والأمن مستتباً وأن تجرى الأشياء فى نصابها فلا تزعجه العسكرية ولا غير العسكرية مرة أخرى . لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى علم أن الباب العالى أرسل وفداً برياسة على نظامى باشا . ترى ما هى مهمة الوفد ؟ الخديو لا يعلم ، وفرنسا وإنجلترا لا تعلمان ، والوزارة العثمانية نفسها لا تعلم . لقد أرسله أمير المؤمنين بإرادة شاهانية ، فماذا عسى أن تكون هذه الإرادة ؟ ونزل الوفد مصر فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨١ بعد ما احتجت إنجلترا وفرنسا على تركيا لإرسالها إياه من غير اتفاق معها ولا مجرد إخطار لها . وجاء الوفد واحتفل الخديو به وأقام بمصر سبعة عشر يوماً وعاد أدراجه ، وكان كل ما فعل أن أكد للخديو ثقة المتبوع الأعظم به وإن أكد للجيش المصرى فى حديث دار بين نظامى باشا وطلبة عصمت بمسمع من الجند أن حكومة الباب العالى لا تلوم الجند على ما فعلوا وأنها ترى مصر فى طمأنينة وسكينة .

بإزاء تصرف الوفد شعر توفيق كأن الدسائس التى كانت تحاك له خيوطها على ضفاف البسفور بمعرفة حليم باشا تعاونه الأميرات قد آتت ثمراتها ، وأنه لولا تأييد إنجلترا وفرنسا إياه لكان معرضاً لمثل ما تعرض له أبوه من قبل . ومن يدرى ؟ فقد يكون حليم باشا قبل أن تسترد تركيا فى فرمان توليته ما شاءت أن تسترده من الحقوق المكسوبة لمصر . فليزدد توفيق إذن اعتماداً على فرنسا وعلى إنجلترا ، وليخش فى نفس الوقت تدخلها ، وليضطرب لذلك بين مختلف العوامل ، وليترك وزارته تجاهد وحدها للخلاص من حرج الموقف .

ودعت الوزارة لانتخاب مجلس شورى النواب كى تعرض عليه القانون النظامى لمجلس النواب ، وافتتحه توفيق بخطاب عرش ألقى فى ٢٦ ديسمبر سنة

١٨٨١ ورد عليه سلطان باشا رئيس المجلس ، وعرضت الوزارة القانون النظامى فاختلف المجلس معها فى أمر نظر الميزانية . ذلك أن الحكومة كانت ترى احتراماً للاتفاقات التى تمت بين الحكومة المصرية والدول الأجنبية أن يكون الأمر الأخير فى الميزانية للوزارة مع مراعاة إرادة النواب قدر المستطاع فى حدود هذه الاتفاقات . أما النواب فكانوا يريدون أن يكون رأيهم الأخير أو يسار على القاعدة الدستورية من حل المجلس أو سقوط الوزارة . ولم يمكن التوفيق بين الرأيين ، فكان ذلك سبباً فى استقالة وزارة شريف باشا بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ وحلول وزارة محمود باشا سامى البارودى محلها مع تعيين عرابى باشا وزيراً للحربية فيها .

وفى أثناء قيام الخلاف بين وزارة شريف باشا ومجلس شورى النواب أرسلت الحكومتان الفرنسية والإنجليزية مذكرة مشتركة إلى الخديو توفيق باشا تؤيدانه فيها فى الخديوية وفقاً للفرمانات وتعدان سكينة مصر مما يعنيهما لمصلحة رعاياهما وتعلنان استعدادهما لدفع ما يطرأ على الحكومة الخديوية من الأخطار . وكان منتظراً أن تحدث هذه المذكرة من الأثر ما يضعف تمرد المتمردين . على أن تركيا احتجت على الدولتين لتخطيهما إياها ومخاطبتهما الخديو مباشرة كما علم العرابيون أن إنجلترا أبلغت فرنسا أنها برغم هذه المذكرة تعتبر نفسها حرة فى الخطة التى تتخذها تنفيذاً لمقاصدها . وقوى ذلك من ساعدهم وجعلهم أقل اكتراثا للحوادث وتقديراً لنتائجها . والواقع أن فكرة الثورة التى بدأها الجيش كانت قد انتشرت فى أنحاء البلاد جميعاً وأن قمع تيار هذه الروح كان قد أصبح متعذراً . وبخاصة مع وجود رئيس للدولة ضعيف ضعف توفيق .

واستمر مجلس النواب ينعقد إلى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ حين صدر الأمر بانفضاض دوره العادى .

وفى أعقاب انفضاض المجلس نظر عرابى إلى ما حوله موجساً خيفة مما يدبر

خصومه له . ولم تك إلا أيام حتى صدرت أوامر الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم عثمان باشا رفقى بتهمة اتجارهم به وبزملائه وبالنظام الذى أقاموه ومحاكمتهم أمام مجلس حربى والحكم عليهم بالنفى إلى أقاصى السودان . وكان عرابى ومن معه مقتنعين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة . وزادهم اقتناعاً رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربى . وعلى ذلك استعر الخلاف بين الخديو والوزارة . يصر الوزراء على تنفيذ حكم المجلس ويعترضه رئيس الدولة . وأدى ذلك إلى تخوف فرنسا وإنجلترا على الرعايا الأجانب فى مصر ، فقرروا إرسال بوارج إلى المياه المصرية للمحافظة على حياتهم ومصالحهم . وأعلنت فرنسا وإنجلترا جميعاً حرصهما على تأييد الخديو فى مركزه . وفى ذلك إشارة إلى ما كانتا تتوقعانه من وصول عرابى وأصحابه إلى استصدار قرار من النواب بعزله .

ولما اشتد الخلاف بين الوزارة والخديو دعت الوزارة الهيئة النيابية للاجتماع وتوسط سلطان باشا رئيس المجلس وجماعة من كبار النواب معه يريدون الوصول إلى حل لهذا الخلاف . وكان من الحلول التى قبلها الخديو أن يقال سامى البارودى من رياسة الوزارة وأن يحل محله مصطفى باشا فهمى . لكن مصطفى باشا أبى . وبينما المحادثات دائرة بين النواب والخديو والوزارة كانت البوارج الإنجليزية والفرنسية قد وصلت إلى المياه المصرية وأعقبتها الدولتان ببلاغ وجهه قنصلاهما فى ٢٥ مايو إلى الخديو يطلبان فيه سقوط الوزارة بتمامها وخروج عرابى من القطر المصرى مع ضمان الدولتين رتبه ومرتباته ونياشينه ، وإقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الأرياف وإصدار الخديو بعد ذلك عفواً عاماً عن جميع من كانت لهم يد فى المسألة . وأبلغ الخديو وزراءه هذا الإنذار ، فرفضوه بحجة أن ليس للدول شأن فى مخابرة مصر إلا عن طريق الآستانة . على أن الخديو أظهر رضاه عن الإنذار فاستقالت الوزارة محتجة وقبل الخديو استقالتها ودعا شريف باشا لتشكيل وزارة

جديدة . لكن شريف باشا رأى الموقف لا يطاق فاعتذر كما اعتذر عمر باشا لطفى . وفى هذه الأثناء أوفد الباب العالى درويش باشا معتمداً سلطانياً لينظر فى الخلاف بين الخديو ووزرائه بل العرابيين جميعاً ، فإن هؤلاء كانوا قد انتهوا إلى ضرورة خلع الخديو وتولية البرنس حليم مكانه . وكانوا يطمعون فى نجاح هذه السيامة لعلمهم أن تركيا تؤيدها .

وفى انتظار حل المشاكل وتعيين وزارة جديدة وطنية تفاقم الخطب واضطرب حبل الأمن فاضطر الخديو إلى أن يعين عرابى وحده ناظراً للحربية ليتولى أمر الأمن فى البلاد .

ولم يشعر الخديو من جانب المعتمد السلطانى بما يدل على استعداد تركيا إذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده فى مركزه برغم العرابيين . لذلك قبل الموقف كما هو وعين وزارة إسماعيل راغب باشا على أن يظل عرابى وزيراً للحربية . وظل توفيق ووزراؤه فى العاصمة وظلت أساطيل الدول فى مياه الإسكندرية وظل الناس يتحدثون فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور فى زمن قريب . وكان أعجب المواقف يومئذ موقف تركيا . فقد اقترحت إنجلترا وفرنسا أن ينعقد بالآستانة مؤتمر دولى للنظر فى حالة مصر وإقرارها على صورة من الصور . لكن تركيا رفضت رفضاً باتاً بدعوى أن الحالة فى مصر عادية وأن النظام القائم لا خوف عليه . وفيما الحديث بين الدول فى أمر المؤتمر وانعقاده دائر وقعت فتنة الإسكندرية فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

وليس يسيراً معرفة الأسباب الحقيقية التى أدت إلى هذه الفتنة . أهى كانت حركة فجائية نتيجة تكدس هذا الثغر بالسكان وتزايد الوافدين عليه بسبب الحال غير الطبيعية التى نشأت عن وجود البوارج فى مياهه ؟ أم هى كانت بتدبير سابق من عرابى وأنصاره كما يزعم بعض الكتاب الإنجليز مؤيدين زعمهم بأن الحكومة

تباطأت فى قمع الذين أثاروا الفتنة وبكثرة عدد قتلى الأجانب على قتلى المصريين زيادة محسوسة ؟ أم هى كانت على العكس من ذلك مدبرة من جانب الإنجليز على ما يذهب إليه عرابى وأنصاره مؤيدين رأيهم بأن أمير الأسطول الإنجليزى كان مأموراً بالمحافظة على أرواح الرعايا البريطانيين ومصالحهم على خلاف أمير الأسطول الفرنسى الذى كان مكلفا بالمظاهرة البحرية لتأييد سلطة الخديو . ومهما يكن من هذه الفروض فقد وقعت مذابح ١١ يونيو وحكومة الخديو بالقاهرة . فخف توفيق وعرابى والوزراء فى اليوم نفسه وعقدوا مجلساً عسكرياً لتحقيق أسباب الفتنة وجعلوا على رأسه عمر باشا لطفى محافظ الإسكندرية الذى اتهمه الإنجليز بالتهاون فى قمعها ، وبلغوا من اتهامه أن انسحب المحامى الإنجليزى الذى حضر تحقيق المجلس العسكرى بأمر القنصلية البريطانية .

وبقى الخديو وحكومته بالإسكندرية يريدون إعادة الأمن إلى نصابه . وكان توفيق يومئذ فى مركز لا يحسد عليه ، فهو لم يكن يأمن جانب تركيا ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أنها تعارضه وتؤيد المتمردين عليه رجاء الوصول يوماً من الأيام إلى خلعه وإقامة حليم باشا مكانه ، وهو لم يكن يأمن العرابيين لما كان يعتقده من بغضهم إياه واتفاقهم مع السياسة التركية فى التخلص منه ، وهو مع اعتماده على تأييد فرنسا وإنجلترا كان يخشى ألا يتخطى أمرهما التأييد المعنوى فإذا فوجئا بالأمر الواقع من عزله لم يقوما بعمل لتثبيته فى عرشه . ثم هو لم يكن يثق حتى بالجراكسة من وزرائه ، لأنه شعر بالقوة المصرية تتغلب على كل شىء فى البلاد وتبتلعه .

وتجسم الشعور بهذه القوة القومية فى رأس عرابى وأعوانه حتى دفعهم إلى تقوية حصون الإسكندرية استعداداً لدفع الغارة البحرية عليها . ومع أن الدول كانت قد تخطت معارضة تركيا فى عقد مؤتمر الآستانة لحل المسألة المصرية وانعقد المؤتمر فى العاصمة التركية فعلا برئاسة لورد دفرين سفير إنجلترا لدى الباب العالى وكان طبيعيًّا

أن يكف الجميع عن تعقيد المسائل فى مصر حتى يصدر المؤتمر قراره فإن تحصين قلاع الإسكندرية استمر ، كما أن الأميرال سيمور الإنجليزى أبلغ الخديو بأنه مضطر إذا لم تقف التحصينات إلى ضرب قلاع الإسكندرية بالمدافع . وعلى الرغم من احتجاج ممثلى الدول على بلاغ الأميرال ومن إنكار طلبة عصمت الاستمرار فى التحصينات ومن أن تسوية المسألة كانت ممكنة لو أن فرنسا شاركت فى الضغط المعنوى على الحكومة المصرية كى تنتظر قرار مؤتمر الآستانة فإن الأميرال سيمور أصر على قراره وقررت وزارة فريسنيه انسحاب الأسطول الفرنسى إلى بور سعيد .

ماذا يفعل توفيق ومقامه بسراى رأمس التين يجعله معرضاً لقنابل مدافع البوارج ؟ لقد طلب إليه المستر كلفن أن ينتقل إلى بارجة أمير البحر الإنجليزى لأن غرض الأسطول الإنجليزى تأييد ملكه . لكن توفيق كان يعلم أن التجاءه وهو أمير هذه البلاد التى تطلق النار عليها إلى أساطيل مهاجميها يعرضه لعزل تنفرد إنجلترا بالاعتراض عليه بينا تشترك فرنسا والدول الأخرى مع تركيا فى تأييده لما كان لفرنسا من ضلع ظاهر مع العرابيين ومع حليم باشا . لذلك رأى الاستسلام للمقادير وقال لمستر كلفن ما مؤداه :

« إنى لا أبرح مكانى ولو وقعت الواقعة وأطلقت المدافع على الإسكندرية ، فإن لى من رعيتى قوماً أمناء لم يخونونى بل خدمونى بأمانة وصداقة فلا يصح أن أتركهم أوان الشدة لأنجو بنفسى ، ولا يليق بى كذلك أن أترك البلاد فى وقت الحرب فإن فى ذلك عاراً عظيما » واكتفى بالانتقال هو ودرويش باشا إلى قصر الرمل بعيداً عن مرمى المدافع .

وفى صباح ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ أطلقت البوارج الإنجليزية مدافعها على حصون الإسكندرية فجاوبت الحصون بإطلاق مدافعها . على أن الموقعة لم تدم لأكثر من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ، إذ صمتت نيران الحصون ودك بعضها

دكًّا وشعر العرابيون بأن ما توهموه من قوتهم على مقاومة البوارج الإنجليزية لم يكن إلا وهماً . على أن ذلك لم يفت فى عضدهم ولم يوهن من عزيمتهم إذ اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يعسكروا فى كفر الدوار ليعودوا بعد زمن إلى مهاجمة الإسكندرية . وعلى ذلك قرر عرابى ومن معه الانسحاب من الثغر بعد أن أيقنوا من أن الخديو الذى رفض الالتجاء إلى بوارج الإنجليز قد سر لانتصارهم وأنه لذلك قد صار خصماً ظاهراً للثائرين عليهم . وفيما كانت المدينة تحترق بفعل الجماهير الثائرة والعساكر المقيمة مع عرابى عاد الخديو من سراى الرمل حيث كان سجيناً تحت أمر رجال عرابى إلى سراى رأس التين حيث استقبله الجند الإنجليز على بابها وحيث استقبله الأميرال سيمور وعدد من رجاله داخلها .

وكان فى الوقت متسع ما يزال لإخماد نار الفتنة فى مصر لو أن تركيا لم تكن متأثرة بسياسة فرنسا حريصة على تأييد الثائرين . فقد طلب إليها لورد دفرين ، بناء على تعليمات حكومته ، أن تعلن أن عرابى عاص وتؤيد سلطة الخديو واستعدادها لإرسال قوة لقمع العصيان وإعادة النظام . لكن تركيا أبت أن تخطو هذه الخطوة . وطلبت إنجلترا إلى فرنسا أن تشترك معها فى الدفاع عن قناة السويس ، فأعلن الساسة الفرنسيون أن قنال السويس بمأمن من أن يهدده مهدد . والواقع أن عرابى ومن معه لم يفكر أحد منهم فى تحصين بناحية القنال اعتماداً منهم على حيدته وعلى تأكيد المسيو دلسبس بأن أية قوة محاربة لن تستطيع خرق حياده . ورأت إنجلترا بإزاء ذلك كله أن الفرصة سانحة لأن تخطو خطوة جديدة فى وادى النيل بعد خطوتها الأولى التى أتمها دزرائيلى فى سنة ١٨٧٥ بمشترى أسهم القناة التى كانت مملوكة لإسماعيل فقررت التدخل المسلح منفردة . ولم تعبأ بحيدة القناة بل ذهبت أساطيلها المقلة للجيش الذاهب إلى مصر قاصدة بور سعيد والإسماعيلية فاحتلتهما من غير أية مقاومة ولا أى احتجاج . وعسكرت القوة الإنجليزية يوم ٢٢ أغسطس

فى الإسماعيلية . وفى هذا الظرف وبعد فوات الفرصة أعلنت تركيا عصيان عرابى وأيدت توفيقاً فى عرشه . لكن توفيقاً كان قد انضم إلى السياسة الإنجليزية وعزل عرابى من نظارة الحربية واعتبره ثائراً . وقامت فى مصر إذ ذاك حكومتان : حكومة توفيق يؤيدها فريق من المصريين وتؤيدها إنجلترا ، وحكومة الثورة تخضع لها البلاد كلها . لكن هذه الحكومة الثانية لم يطل أمرها . فقد انهزم عرابى وجنده فى موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ودخل الإنجليز القاهرة فى الخامس عشر من هذا الشهر نفسه .

وعاد توفيق إلى عاصمة ملكه فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ يصحبه الدوق أوف كنوت والجنرال ولسلى والسير ادورت مالت . وكان توفيق يظن أن قضاء إنجلترا على الثورة باسم تأييد مركزه معناه عوده للحكم وتولى أمور البلاد على ما تجيزه الفرمانات . ولعله لم يخطر بباله أن انتصار إنجلترا فى التل الكبير ودخول الجيوش الإنجليزية إلى عاصمة ملكه قد قدر له أن يكون معناه القضاء على سلطته ، بنقلها من يده إلى يد هؤلاء الذين ثبتوه فى عرشه . ولعله لم يخطر بباله أن عوده إلى مقر سلطانه محاطاً بالأمير وبالقائد وبقنصل إنجلترا سينتهى لا ريب إلى أن تكون الحوادث العرابية آخر ما خبأ القدر لتوفيق من نشاط . ولئن كان عرابى سيحاكم وسينفى إلى سيلان فإن ولى عرش مصر لن يكون أعظم من عرابى سلطاناً برغم مقامه فى قصوره وسط عاصمة ملكه .

فبرغم تبليغ اللورد دوفرين الباب العالى عقب موقعة التل الكبير أن الحكومة البريطانية تفكر فى سحب جنودها من مصر مادام النظام قد استتب فيها فإن حكومة جلالة الملكة رأت عقب انتصارها على الثوار أن يكون مصير الثوار بيدها لا بيد حكومة الخديو . أليست هى التى تغلبت عليهم وقهرتهم ؟ وإذا كان الخديو وأنصاره يرون طبيعيًّا أن يقضى على عرابى وكل من معه بالإعدام جزاء فشلهم فى ثورتهم ،

فإن إنجلترا تنظر للأمر نظرة أخرى . ولذلك أبلغ القنصل الإنجليزى الخديو ألا يتصرف فى أمر الثائرين قبل حضور اللورد دوفرين إلى مصر ، وكانت حكومته قد انتدبته «لينصح إلى حكومة الخديو بالوسائل الواجب اتباعها لإعادة سلطة سموه» . وكان أول ما صنعه لورد دوفرين أن طلب الإفراج عن المئات الذين اكتظت بهم السجون باعتبارهم ثائرين عدا خمسة هم عرابى وطلبة ومحمود سامى ومحمود فهمى وعلى فهمى ومع أن القوانين التركية للمجالس العسكرية لم تكن تبيح حضور محام عن المتهمين فقد جاء محاميان إنجليزيان هما مستر نابير ومستر برودلى . وبعد صدور الحكم بالإعدام استبدله الخديو عملا بنصيحة قنصل إنجلترا – ونصيحته عند توفيق أمر محترم – بالنفى المؤبد .

وكان لابد لانسحاب الجنود الإنجليزية من أن تستريح إنجلترا إلى انتظام الجيش المصرى انتظاما تطمئن معه إلى عدم تهديد الأمن مرة أخرى ، وأن تطمئن إلى شىء آخر هو ألا تتعرض مصر لغزو دولة أخرى إياها غزواً يعرض قناة السويس إلى الخطر ، وغير مرة أعلنت إنجلترا استعدادها للجلاء عن مصر وسحب جنودها منها متى اطمأنت إلى هذه الغايات . وهذه ثمان وأربعون سنة مضت منذ الاحتلال ولما تهتد الحكومة البريطانية – على الأقل – إلى ما يطمئنها على ألا تغزو مصر دولة أخرى أو أن تتعرض قناة السويس الدولية للخطر !

على أنها رأت فى ذلك التاريخ وبعد مشورة اللورد دفرين أن تنظيم الحكم فى البلاد على قاعدة العدل هو أقرب الوسائل لتحقيق الأغراض التى تريد أن تتحقق لتجلو عن وادى النيل . فأمرت ، أستغفر الله ، فنصحت أن يلغى توفيق قانون مجلس النواب ويستبدل به قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية وأخذت بيدها مقاليد مالية البلاد ونحت فرنسا قدر المستطاع عنها ودعت إلى عقد مؤتمر لاستبدال نظام التصفية بنظام آخر ، وجعلت تتغلغل فى شئون الحكم شيئاً فشيئاً حتى وضعت

يدها على كل شيء وعلى توفيق من بين ما وضعت يدها عليه .

وسر توفيق بهذه الحال الجديدة واطمأن أشد الاطمئنان لها . بل لقد بلغ من إخلاصه لإنجلترا أن كان لا يكتم على ممثلها سرًّا من أسرار وزارته . روى أحد الذين حضروا ذلك العصر أن رياض باشا اتفق مع زملائه مرة على أن يعقدوا مجلس وزارة لا يحضره المراقب الإنجليزى كلما أرادوا النظر فى شئون تعنى مصر وحدها . وأبلغ رئيس الوزارة توفيقاً هذا الخبر . ثم لم يكن بأكثر من دهشة رياض حين نبهه قنصل إنجلترا العام إلى أنه كان يعتقد فيه الصراحة ، وروى له ما أخبر هو به الخديو من قبل .

ولم يكن يدور بخاطر توفيق شيء من أمر جلاء الجنود البريطانية عن مصر برغم إلحاح السياسة الفرنسية فيه بعد إذ رأت نفوذها فى وادى النيل يتقلص . وكيف تريد توفيقاً أن يؤيد السياسة الفرنسية وقد كانت منضمة للعرابيين ضده فى ظروف كثيرة ، وكانت تعطف على فكرة تعيين حليم باشا فى منصب الخديوية ؟ ! وإذن فليصنع الإنجليز لتنظيم أمر البلاد ما يشاءون . ليقرروا ثلاثة ملايين من الجنيهات تعويضاً لمن أصابهم ضرر من جراء فتنة الإسكندرية ، وليوطدوا نظام الحكم الذى يرون توطيده فى مصر ، وليوفدوا إلى السودان ما يشاءون من الجيوش لقمع ثورة المهدى ، وليقرروا الانسحاب من السودان وإخلاءه فيأتى رئيس وزارته شريف باشا ويقبل نوبار الوزارة والانسحاب — ليصنعوا بمصر ما شاءوا وليعينوا من الوزراء من شاءوا فلن ينسى توفيق لهم فضل تثبيته على عرشه ولن يكون لهم إلا أخلص المخلصين .

ولعل ما كتبه لورد كرومر عن توفيق وخلقه خير ما يوضح لنا مبلغ اطمئنان توفيق للحالة الجديدة ، حالة الاحتلال الإنجليزى قال جنابه ما مؤداه :

« ما أحسب خير أصدقاء توفيق يذهبون إلى أنه كان رجلا عظيماً أو خديويًّا

مثالياً . فالواقع أنه لم يكن من العظمة فى شىء . ولقد كان مكتفياً بزوج واحدة فضرب بذلك مثلا صالحا لأهل بلاده . وكان أبا صالحاً نشيطاً معنيًّا بحسن تربية أولاده . وقد اشتهر بالتقوى ولكنه كان خلواً من أية ظاهرة للتعصب مما يصطبغ به أتقياء «المسلمين» ووصلت تقواه بينه وبين رعاياه المسلمين وكانت لذلك عاملا سياسيًّا له بعض الخطر . وكان بالقياس إلى من حوله مستقيماً وفيًّا . وكان كأكثر أهل بلاده يخاف المسئولية ويجتهد ما استطاع ليلقى كل ما يقدر على إلقائه منها على أكتاف الآخرين . فكان يشكو من كثرة عدد الأوربيين فى الحكومة المصرية ، فإذا قصد إليه أوربى يلتمس منصباً أجابه بأنه يكون سعيداً لإجابة الطلب ولكن سلطة بريطانية تمنعه من السير بما يمليه عليه قلبه . وكان عديم النشاط يعوزه الابتكار ، ولكنه كان إذا اضطر إلى أن يقر قراراً أبدى فى غير قليل من الأحيان ما يدل على الكرامة وحسن التقدير وبعد النظر . وكان طيب القلب حتى يكاد فى بعض الأحايين يبدى من الاعتراف بالجميل عما قدم إليه من خدمة ما يندر أن يكون من صفات حاكم شرقى . وكان يظهر أعمق المقت لكل أنواع التحكم والإرهاق والقسوة . ولم يكن أبداً مسئولا شخصيًّا عن عمل من هذه الأعمال ، وإن كان تباطؤه وإهماله قد أتاح ارتكاب كثير من الظلامات باسمه . ولم يكن متعلماً تعليما عالياً . وقل أن قرأ كتاباً . ولكنه كان يطلع على الصحف ويتحدث مع رجال من كل طراز ومكانة . وكان متوسطاً فى إدراك الحوادث التى تلقى إليه وفى تتبع المناقشة التى تحدث أمامه . أما من حيث حدة الذكاء فربما كان فوق متوسط أهل بلاده .

«وإذا لم يكن عظيماً فى الرجال فهو لم يكن خديوياً مثلا . فلو أنه كان رجلا قوى الإرادة سامى الخلق حاد الذكاء لوضع نفسه على رأس حركة الإصلاح فى مصر ، ولظهرت سلطته ، ولما توقدت غيرة الإنجليز الذين كانوا موظفين فى حكومته . على أنه مع ذلك كانت له الفضيلة السلبية أنه لم يكن ملوثاً برذائل

الحاكم الشرق . وهو إذا لم يكن قد قام بالفعل بشيء فى حركة إصلاح فكفاه أنه كان مغتبطاً لقيام آخرين بدله بهذه الحركة . وهو إذا لم يكن قد ساق غيره فى سبيل الخير فكفاه أنه اتبع الغير فى هذا السبيل . وأشهد أنى اقتنعت برأيه فى أحيان أكثر من التى اقتنع هو فيها برأيى عند وجود خلاف بيننا » .

وهذا الحكم يبين للقارئ السبب فى أنا لم نقف بعد حوادث الثورة العرابية عند شيء من حياة توفيق ، فقد كانت حياة عادية لا تتخللها الحوادث لأنه لم يكن له فى الحوادث يد ولا تصريف ، وبقى كذلك إلى أن توفى فى سنة ١٨٩٢ غير محمود ولا مذموم .

* * *

والآن فهل على توفيق تبعة فى الحوادث الجسام التى حدثت أول أيام حكمه والتى أدت بمصر إلى موقفها الحاضر؟ هذا ما لا يصعب الجواب عليه . فعلى توفيق التبعة إذا كانت على إنسان تبعة ضعف نفسه واضطرابه بين قوى لا سلطان له عليها . وإنما التبعة أكبر التبعة على الحوادث التى أحاطت بتوفيق فكان لضعفه لا يملك تحويرها بما يتفق ومصلحة بلده . إنما التبعة على تركيا ، وعلى فرنسا ، وعلى إنجلترا ، وعلى عرابى . وماذا يستطيع ضعيف قصير النظر كتوفيق أن يصنع بين هذه القوى جميعاً إلا أن يترك نفسه يتقاذفه موج الحوادث ليصل بملكه وبلاده إلى ما وصلا إليه !

obeikandl.com

محمد قدرى باشا

نقلت هذه الصورة عن مجلة المقتطف الغراء

من الكتب ما ينبه ذكره ويعظم أثره بمقدار يخفى على ذكر المؤلف حتى ليكاد يعفى خبره . من هذا الطراز كتب ثلاثة ما يغيب اسم واحد منها عن ذاكرة محام ولا قاض ولا طالب حقوق ولا رجل من رجال الشرع الإسلامى . هذه الكتب الثلاثة هى : «مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان فى المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان» ، وكتاب «الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية» ، وكتاب «قانون العدل والإنصاف للقضاء فى مشكلات الأوقاف» . بل إن معرفة هذه الكتب لا تقف عند رجال القانون والشرع ، بل تمتد كذلك إلى عدد عظيم من سواد الناس . فقد نظمت ثلاثتها أحكام الشريعة على مذهب أبى حنيفة فى تقنين ذى مواد بلغ بحاجة كل من يهمه الوقوف على هذه الأحكام إذ يجدها مبوبة مرتبة مدققاً فى اختيار ألفاظها حتى تعنى مدلولاتها على صورة من

التحديد الدقيق الذى يقضى به فن الفقه القانونى . وهذه الكتب الثلاثة هى الأولى والأخيرة فى بابها ولذلك نبه ذكرها وعظم أثرها وتناول الناس ما فيها بالدراسة ، فإذا سألت أكثرهم عن واضعها قيل لك هو قدرى باشا . لكن أكثر الناس لا يعلمون من أمر قدرى باشا إلا اسمه ، وإلا أنه واضع هذه الكتب الثلاثة ، وقد يكون ذلك كافياً لتاريخه . فهذه الكتب الثلاثة هى فى الحق أثر كاف لتخليد واضعه . وإذا كان نابليون قد جعل من قانونه المدنى عنوان مجده واعتبر ما إلى جانب ذلك من مجد النصر والظفر وحكمه العالم ثانوياً ، فكتب قدرى باشا فى تقنين أحكام الشرع فى المعاملات والأوقاف والأحوال الشخصية عنوان مجد باق على الزمان .

لكن ، من كان قدرى باشا ؟ وماذا كان تاريخ حياته ؟ لابد أنه كان فقيهاً عظيماً من علماء الأزهر معهد دراسة الشريعة الإسلامية وموضع العناية بها . فالرجل الفذ الذى يقنن شريعة من الشرائع يجب أن يكون من أساطين رجال هذه الشريعة . فليس طبيعياً أن يخرج هذا المعهد الألوف من العلماء والفقهاء ثم يكون من يقنن الشرع غيرهم ! غير أن الواقع أن قدرى باشا لم يكن منهم ولم ينخرط فى سلكهم ، ولم ينضم إلى زمرتهم . وكتبه الفقهية هذه ليست كل تواليفه وإن كانت أبقاها وأخلدها . فقد كانت تربيته ودراسته مدنية بحتة . وكانت الوظائف التى تقلدها بعيدة عن أن تمس الأزهر الشريف أى مساس .

وقد ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ من أب أناضولى هو قدرى أغا الذى كان من أعيان بلد وزير كوبرلى . وحين جاء إلى مصر أقطعه والى مصر بعض العزب بمركز ملوى على طريقة الالتزام التى كانت معروفة يومئذ . فتزوج من مصرية أولدها ولده محمداً وأدخله مدرسة صغيرة بملوى ، حتى إذا أتم الدراسة بها بعث به إلى القاهرة فى مدرسة الألسن حيث أتم بها دراسته وعين فيها مترجماً مساعداً .

وكانت مدرسة الألسن هى المعهد الذى أسس لبث الثقافة الحديثة فى مصر .

فقد أدرك أهل ذلك العصر إدراكاً تامًّا أن المدنية الغربية قوية التيار جارفته ، وأن الحضارة الإسلامية التى يمثلها الأزهر أصبحت غير قادرة على الوقوف فى وجه هذا التيار ، كما أنها كانت قد جمدت على تعاليم لا تقبل أن تطعم بالتعاليم الحديثة ، فلا يمكن معالجة التوفيق بين المذهبين . وكانت اللغات – أو الألسن على ما كانوا يسمونها يومئذ – هى موضع عناية مدرسة الألسن الكبرى . فكانت تدرس فيها اللغات التركية والفارسية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية . وكانت العناية فيها باللغة العربية عناية فائقة يدل عليها ما وضعه الذين تخرجوا منها وما ترجموه من كتب ومؤلفات كثيرة . قال قدرى باشا صاحب هذه الترجمة فى كتابه (معلومات جغرافية) الذى نشر فى سنة ١٨٦٩ : «وقد ترجم تلاميذ هذه المدرسة أكثر من ألفى مجلد» وأتى بأسماء كثير ممن ترجموا والفنون التى ترجموا كتبها الغربية . وكان القصد من تعليم هذه (الألسن) والقيام من بعد ذلك بترجمة الكتب فى مختلف الفنون نقل الحضارة الغالبة إلى مصر ليتمكن أهلها من السير سيرة أهل أوربا . ولعل أكثر ما ترجم إنما ترجم عن اللغة الفرنسية . فقد تأثرت مصر بالثورة الفرنسية الكبرى ، كما تأثرت بها دول أوربا المختلفة . وكان من أثر ذلك أن قام محمد على باشا فيها بحركة تشبه الحركة التى قام بها نابليون فى فرنسا ، وكان مرجوًّا أن تؤتى خير الثمرات لولا أن تألبت أوربا على مصر وحرمتها يومئذ ثمرات الظفر ، كما وقفت بعد ذلك عائقاً فى سبيل تقدمها تقدماً يرفعها إلى الصف الذى يجب أن تشغله بين أرقى أمم الأرض وأقواها .

عين قدرى باشا إذن مترجماً مساعداً بمدرسة الألسن على أثر تمام دراسته بها . وكان له ميل خاص لدراسة علوم الفقه ولمقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوربية . فكان لذلك يحضر بعض دروس الفقه بالأزهر ، وكان مكبًّا على مطالعة كتب الشرع منذ حداثة سنه . لكن آثاره فى ذلك لم تظهر إلا بعد سنين طويلة .

وبقيت الترجمة عمله الرسمى الذى كان يتقنه أيما إتقان . ولذلك نقل من مدرسة الألسن إلى نظارة المالية مترجماً لا مساعد مترجم .

ولما احتل إبراهيم باشا الشام عين شريف باشا والياً لها . فأخذ هذا الأخير قدرى باشا (وكان ما يزال قدرى أفندى) سكرتيراً له ، ثم سافرا إلى الآستانة وعادا بعد ذلك إلى مصر وظلا متلازمين حتى عين قدرى باشا أستاذاً للغتين العربية والتركية فى مدرسة الأمير مصطفى فاضل باشا . ثم اختاره الخديو مربياً لولى العهد . ثم عين بالمعية فالمعارف فمجلس التجار بالإسكندرية فرئيساً لقلم ترجمة الخارجية .

وفى أثناء اشتغاله بالتدريس وضع عدة كتب فى مواضيع مختلفة . لكن أكثرها كان فى اللغة العربية وأجروميتها ومفرداتها ، وكان معاجم عربية – فرنسية . من ذلك الدر النفيس فى لغتى العرب والفرنسيس ويقع فى سبعمائة صفحة ، والدر المنتخب من لغات الفرنسيس والعثمانيين والعرب ، وأجرومية فى اللغة العربية ، ومختصر الأجرومية الفرنساوية مترجمة إلى العربية ، والمترادفات باللغة العربية والفرنساوية . هذا عدا بعض كتب فى التاريخ والجغرافيا ككتاب (معلومات جغرافية مصحوبة ببعض نبذ تاريخية لأهم مدن مصر جمعت وترجمت بالعربية لفائدة الشبيبة المصرية) . وهذا الكتاب تم طبعه فى سنة ١٨٦٩ .

يدل كثير من هذه الكتب على مبلغ تضلع قدرى باشا فى اللغتين العربية والفرنسية وعلى مقدرته الفائقة فى الترجمة . لذلك كان طبيعيًّا أن يدعى للاشتراك فى التمهيد للعمل التشريعى العظيم الذى كانت الحكومة المصرية تفكر فيه والذى كان مقدمة لانتشار المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية . فقد كان القضاء المصرى فى ذلك العهد منوطاً بالمجالس الملغاة التى كانت تحكم بالعرف وكانت تجمع من الرجال من قلت درايتهم بقواعد العدالة . وإذ كانت مبادئ الثورة الفرنسية قد تسربت إلى مصر من طريق الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ ومن طريق الشبان

المصريين الذين أوفدوا إلى فرنسا ثم عادوا إلى مصر ، فقد اتجهت الفكرة إلى تعريب القوانين الفرنسية التى وضعت أيام نابليون ، وعهدت الحكومة إلى جماعة من أفاضل المترجمين المصريين بهذه المهمة . فعرّب القانون المدنى الفرنسى رفاعة بك رافع وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة وأحمد أفندى حلمى وعبد السلام أفندى أحمد . أما قانون المرافعات فعربه أبو السعود أفندى وحسن أفندى فهمى أحد مترجمى وزارة الخارجية ، وعرب قدرى باشا قانون العقوبات ، وعرب صالح مجدى بك قانون تحقيق الجنايات . وجمعت هذه القوانين كلها وطبعت بالمطبعة الأميرية فى سنة ١٢٨٣ هـ .

وإذ كان ميل قدرى باشا للفقه والتشريع يرجع إلى أيام الدراسة ، على ما قدمنا ، فقد صادف ذلك العمل هذا الميل ودفع بصاحبه إلى التفكير فى تقنين أحكام الشريعة الإسلامية . وزاده إمعاناً فى هذا التفكير أن عهد إليه بالاشتراك فى ترجمة قوانين المحاكم المختلطة إلى اللغة العربية مع اللجنة التى أنشئت فى وزارة الحقانية للقيام بهذا العمل تمهيداً لوضع تشريع جديد للمحاكم الأهلية التى أزمع إنشاؤها من يومئذ . ولما كان التشريع للمصريين يقتضى التوفيق بين أحكام القانون المختلط الجديد الذى أخذ عن القانون الفرنسى وبين أحكام الشريعة الإسلامية التى كان عليها القضاء إلى يومئذ ، فقد اشتغل قدرى باشا بهذه المقارنات ، فوضع كتاباً لم ينشر بعد وما تزال نسخته المخطوطة فى دار الكتب المصرية عن (تطبيق ما وجد فى القانون المدنى – الفرنسى – موافقاً لمذهب أبى حنيفة) . وجاء فى مقدمته أنه (بيان المسائل الشرعية التى وجدت فى القانون المدنى مناسبة وموافقة لمذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان) .

هذه الترجمة لقانون العقوبات الفرنسى ولقوانين المحاكم المختلطة وهذه البحوث المتصلة فى المقارنات بين أحكام الشرع والقانون المدنى الفرنسى مضافة إلى ميله

الأصيل ، جعل من قدرى باشا فقيهاً فى القانون . ولقد نقل من رياسة قلم ترجمة الخارجية مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وظل فى منصبه هذا إلى أن عين وزيراً للحقانية فى أول عهد المغفور له محمد توفيق باشا ، ثم استقال مع الوزارة وعاد بعد ذلك وزيراً للمعارف ، ثم انتقل وزيراً للحقانية من جديد . وعمل فى منصبه هذا على وضع القوانين للمحاكم الأهلية التى أريد إنشاؤها ، واشترك بنفسه فى وضع القانون المدنى وقانون تحقيق الجنايات والقانون التجارى . وفيما كان لا يزال ناظراً للحقانية صدرت لائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، ثم أحيل إلى المعاش ، وصدرت القوانين التى اشتغل فى وضعها أيام كان فخرى باشا ناظراً للحقانية .

كان طبيعيًّا إذاً أن ينصرف قدرى باشا فى الشطر التالى من حياته عن الاشتغال بما شغل به فى الشطر الأول — من ترجمة ونحو وصرف — إلى العمل فى القانون والتشريع . وكان قدرى باشا من طراز الذين يتوافرون بكل قوتهم على العمل ولا يملونه . ولذلك وجه كل همه إلى تقنين مذهب أبى حنيفة بوضع الكتب الثلاثة التى ما يزال اسمه مقروناً بها : «مرشد الحيران فى المعاملات ، والأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف» . وقد ظلت هذه الكتب كلها مخطوطة إلى حين وفاته فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٦ ولم تطبع إلا بعد الوفاة بسنوات طويلة . وهى مع ذلك التى خلدت ذكره وما تزال سبب مجده ، هى هذا الجهد العظيم الذى لم يضطلع به من رجال الشرع الإسلامى أحد ، فاضطلع هو به وأداه على خير وجوهه . واقتران اسمه بها دليل على أنها أثر خالد حقًّا .

فلقد كان فى أعماله الأخرى ما يكفى ليجعل منه واحداً من رجالات مصر وفى مقدمتهم . كان يكفى اقتران اسمه بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية وصدورها . وكان يكفى أنه تقلد الوزارة ثلاث مرات فى حياته . وكانت تكفى كتبه الأخرى . لكن

مناصب الحكومة واقتران الذكر بقانون من القوانين أو عمل عام ناب فيه صاحب الذكر عن الحكومة لا يخلد اسم صاحب المنصب إلا على أنه اسم لا أكثر ، اسم من هذه الأسماء التى قد تصل إلى المناصب بالرياء أو الخديعة أو غير هذين من الأسباب الكثيرة الوضيعة التى يعتبرها بعض الناس حلية لهم وسلماً يرتقون به درجات الحياة ، اسم مكون من حروف هجائية لا من أعمال جليلة ، اسم جف على نقائض الحياة يلاشيها الموت ولا نصيب له من خير يبقى على الحياة أثره . فأما هذه الكتب الثلاثة التى لم تظهر إلا بعد موت مصنفها فقد أعادت اسمه إلى الحياة متألقاً شديد الإشراق سقطت من حوله حياة المادة وضعفها وبقيت له حياة الروح المتصلة بالكون من أزله إلى أبده .

ويقول الذين عرفوا قدرى باشا أيام حياته إنه مع إكبابه على العمل أشد الإكباب لم يكن من المتجهمين للحياة العابسين فى وجهها ، بل كان ظريفاً غاية الظرف ، وكان يتقن الضرب على العود ، وكان لا يأبى أن يجلس من إخوانه خريجى مدرسة الألسن فى حفلة طرب يسمعهم من أنغام عوده ما يهون على النفس أعباء العمل . وإنك لتجد أولئك الذين وهبتهم الطبيعة من قدرتها ما يجعلهم قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم أحرص الناس على أن ينالوا من جوانب الطبيعة الباسمة حظًّا يعينهم على أداء الواجب العظيم الذى فرض الوجود عليهم أداءه ، والذى يقتضيهم من الجهد ما ينوءون به لولا هذا الحظ القليل . وما كان لأحد أن يأخذهم بذلك ، وهو ، أيًّا كان لونه ، ليس إلا رياضة لنفوسهم وأعصابهم أن يبهظها الجهد أو يأتى عليها الملال . وإذا أبهظ الجهد قوى الأفذاذ الذين يقيمون العالم وحضارته فقد آن للملايين الذين يعيشون فى كنف مواهب هؤلاء وينعمون بعملهم أن تتحطم سعادتهم وأن تهدم حضارتهم .

وكان من قسوة القدر على قدرى باشا أن كف بصره وأن انطفأ نور عينيه ،

وكانتا قبل ذلك ذواتى جمال وحدة . وقد سافر إلى النمسا أملا فى معالجة نفسه من هذا المرض ، ولم يمنعه عدم نجاحه فى هذا من متابعة عمله الذى أخرج للناس فى تقنين الفقه الشرعى كتبه الثلاثة .

وتوفى ، فأحدثت وفاته فراغاً فى عالم النهضة القومية . ولكن هذه النهضة كانت حين وفاته فى منحدر أدى بها إلى وقوف تيار النشاط العظيم الذى قام به هو وزملاؤه . فمن قبل سنة ١٨٨٦ كانت مصر قد أصيبت فى مطامعها فى الحرية بضربة لا تقل قسوة عما أصيبت به على أثر انتصارات محمد على باشا على تركيا . وكانت أوربا هى صاحبة الضربة الأولى وصاحبة الضربة الثانية .

ولن تزال كتب قدرى باشا الثلاثة عنوان مجد لا يقل عظمة عن قانون نابليون . ولن ينس الناس من حياة قدرى باشا كل شىء فلن ينسوا هذه الكتب الثلاثة وهى كافية لتقيم مجد رجال لا مجد رجل واحد .

obeikandl.com

بطرس باشا غالى

لعلك إن طلبت مثلاً أعلى بين بلاد العالم لشعب وديع هادئ لا ترى خيرا من مصر محققة لهذا المثل . ثم لعلك إن طلبت مثلاً أعلى لشعب طموح لا تفتأ أحشاؤه تضطرب بأسباب الثورة على الحاضر تطلعاً إلى الكمال وإلى العظمة والمجد ، لا ترى خيراً من شعب مصر محققاً لهذا المثل . فقل أن عرفت مصر وسائل العنف فى السعى إلى أغراضها . ولم يقع أن ذلت مصر واستكانت وينست من تحقيق هذه الأغراض . ولهذا الظاهر من التناقض فى صورة الحياة المصرية أثر كبير فى قدر رجال مصر والآخذين بها لتحقيق مطامعها . فهى أبداً فى نضال مع أمم غيرها تريد قهرها وإذلالها ، وهى أبداً لا تذل لقاهر وإن كانت ظروفها وكان تاريخها قد ألجأها إلى ستر ثورتها الدائمة تحت ظاهر من الهدوء والسكينة . ولذلك كان حتماً بحكم هذه الظروف أن ينشأ فيها الرجل المحرك للعواطف يستنهضها وللهمم يحفزها ،

ولنشاط الجماهير يدفعه إلى الغاية السامية التى تطمع مصر بحق فيها ، وأن ينشأ إلى جانب هذا الرجل رجل آخر هو السياسى الذى يعمل لتلافى الاصطدام بين اندفاعات الشعب وبين القوى الغالبة فى مصر اصطداماً عجز الكل حتى اليوم عن تقدير نتائجه : أهو ينتهى إلى تحطيم قوة الغالبين وقيام مصر إلى جانبهم قوية اليد كما أنها قوية النفس ، أم هو ينتهى إلى تحطيم أمل النفس المصرية فى بلوغ المكانة التى تطمع فيها ؟ وإذا تحطم أمل أمة فترت أجيالا بعد أجيال عن بعثه واستعادته ، حتى يكون ظرف جديد يعين على هذا البعث ويدفع إلى نفس الأمة الأمل حارًّا قويًّا ينبض به قلبها ثم يتدفق ثورة قوية تخلع النير وتحطم القيود .

وكان هذان الرجلان ، رجل الدعوة إلى المثل الأعلى ورجل السياسة والسلم ، خصمين فى أكثر الظروف . وكانت الجماهير بطبيعتها نصيرة أبداً للمثل الأعلى لأنه غذاؤها فى الحياة بل هو ذاته حياتها . أما السياسى الذى يزن القوى ويفاضلها ويعمل للوصول إلى خير ما يمكن أن تصل إليه بلاده فالحوادث اللاحقة هى التى تحكم عليه أو له . ولقد كان بطرس باشا غالى سياسيًّا ، وكان من أكثر المصريين اتصالاً بحوادث عصره من ناحيتها السياسية . فلنجعل للحوادث وحدها الحكم عليه ، ولتكن كلمة التاريخ كلمة حق وإنصاف .

* * *

ولد بطرس غالى بالقاهرة فى ١٢ مايو سنة ١٨٤٦ وتلقى دراسته الأولى فى مدرسة حارة السقايين التى أنشأها الأنبا كيرلس الرابع الملقب عند الأقباط بأبى الإصلاح . وبعد ثمانى سنوات أمضاها فى هذه المدرسة انتقل إلى مدرسة مصطفى فاضل باشا ، وكان له من الصلة بها أن والده غالى بك نيروز كان يشتغل فى دائرة مصطفى فاضل . فلما تخرج منها اشتغل مدرساً بمدرسة حارة السقايين وظل مع ذلك يتلقى علوم الترجمة فى مدرسة الترجمة التى أنشأها المرحوم رفاعة باشا .

وكان فى أثناء دراسته مثلاً للذكاء ولقوة الذاكرة المنقطعة النظير : كان يكفيه أن يقرأ ما يدرس له مرتين أو ثلاث مرات ليستظهره استظهاراً تاماً . ويسرت له قوة ذاكرته العلم باللغات المختلفة . فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية . وهاتان اللغتان الأخيرتان أتقنهما على أحد تجار خان الخليلى ، إذ كان يتلقى عليه مقابل دفع (شبرقته) له . ثم إنه تعلم اللغة القبطية بعد الثلاثين من سنه لمناسبة تدل ، إلى جانب قوة الذاكرة ، على قوة فى الإرادة امتاز بها . ذلك أنه سافر إلى إنجلترا فقابله أحد العلماء العارفين باللغة القبطية . ولما علم أنه قبطى كلمه بها فلم يجبه ، ولكنه لم يلبث بعد أن عاد إلى مصر أن أكب على دراستها . فلم تمض ستة أشهر حتى كتب لصاحبه العالم الإنجليزى خطاباً بها .

وأعانه فى الحياة إلى جانب ذكائه وقوة ذاكرته ومضاء إرادته صحة متينة كان يدل عليها طول قامته وعضله المفتول . كما كان بريق عينيه بريقاً عجيباً يدل على ذكائه وحيلته . لذلك لم يكد يتخطى أوليات الشباب حتى عرفه أولو الأمر يومئذ وعهدوا إليه بأعمال ذات خطر ومسئولية . فقد دخل فى مسابقة حين كان مدرساً بمدرسة حارة السقايين انتقل بها إلى وظيفة كاتب بمجلس تجار الإسكندرية الذى حلت المحكمة المختلطة بعد ذلك محله . وجعل يرتقى من وظيفته هذه حتى صار رئيس كتاب المجلس الذى حكم سنة ١٨٧٣ فى قضية ضد مصلحة أحد المحسوبين على إسماعيل باشا المفتش . وإذ كان مجلس التجار تابعاً لنظارة الداخلية ، فقد أوصل المفتش الأمر إلى ناظرها شريف باشا وأبلغه أن بطرس غالى كان صاحب اليد فى إصدار ذلك الحكم الجائر . فدعا الناظر بطرس إليه فأعجبته مناقشته كما أعجب بمعرفته للغات ، ولذلك نقله من عمله وعينه رئيساً لكتاب نظارة الحقانية التى كلف شريف بإنشائها استعداداً لتطبيق نظام الإصلاح القضائى الجديد .

وكانت سنة ١٨٧٤ سنة نشاط كبير فى الحقانية بسبب التحضير لإنشاء المحاكم

المختلطة . وكان المغفور له محمد قدرى باشا مشتغلاً بترجمة قوانين هذه المحاكم إلى اللغة العربية . فانضم إليه بطرس وعنى وإياه بتعريب التشريع الذى ما يزال أكثره سارياً فى مصر إلى الوقت الحاضر.

وأتاح له الاشتغال فى التحضير للمحاكم المختلطة التعرف إلى رئيس النظار نوبار باشا ، فكان اتصاله به ذا أثر كبير فى تكوينه السياسى . وما فتئ هذا الاتصال بينهما وثيقاً مستمرًّا داعياً إلى ثقة نوبار بباشكاتب الحقانية ، حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظراً للخارجية فى وزارته التى ألفها سنة ١٨٩٥ بعد أن اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظراً للمالية .

ويرجع اختيار رياض باشا إياه لوزارة المالية ، إلى سبب خاص : ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من إنشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب الضائقة المالية التى جرتها إليها الاستدانة الفادحة منذ أول حكم إسماعيل باشا فى سنة ١٨٦٣ . ففى سنة ١٨٧٦ صدر القانون بتأليف صندوق الدين وبتعيين المراقبين الماليين . لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئاً ولم يرفع من الضغط على دافعى الضرائب وإرهاقهم بأقسى وسائل الإرهاق وأبعدها عن كل معانى الإنسانية ، ثم استيلاء صندوق الدين على كل ماكان يحصل ، حتى اضطرت الحكومة إلى عدم دفع مرتبات الموظفين بما جعل أحد الإنجليز الموظفين فيها يومئذ يكتب فى مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فمه فيهما طعام لإعوازه إلى كل ما يسد به رمقه . وإذ كان الدائنون الأجانب مع ذلك مصرين على اقتضاء مصر كل تعهدات ولى نعمتها ، فقد انتهوا إلى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر . وعين رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية فى اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالى السكرتير العام لنظارة الحقانية مساعداً له . ثم عين رياض رئيساً للجنة ، وعهد إلى بطرس بالنيابة عن الحكومة . وفى ذلك الظرف الدقيق اضطر إلى أن

يدرس من مباحث اللجنة ومن الشئون المالية ما مكنه من أن يضع تقريراً عن نظام الضرائب فى مصر كان بعد ذلك مرجعاً ينقل عنه وحجة يعتمد عليها .

ولما انتهت الحوادث التى تلت تقرير لجنة المالية إلى إقصاء إسماعيل باشا عن العرش فخلفه توفيق فيه كانت الحكومة قد بدأت تفكر فى إلغاء المجالس القضائية القديمة وفى إنشاء نظام قضائى جديد هو النظام القائم الآن . وإذ كان بطرس ممن عملوا فى التشريع للقضاء المختلط فكان طبيعيًّا أن يكون على رأس الذين يعملون للتشريع للقضاء الأهلى . لذلك عين فى سنة ١٨٨١ وكيلا للحقانية وألقى عليه عبء تنفيذ النظام القضائى الجديد .

وإلى يومئذ كانت مناصب الحكم فى أعمال الدولة لا يليها إلا المسلمون . فأما الأقباط فكانوا يلون وظائف إنجاز أعمال الحكومة . فكانت المناصب الكتابية وما إليها مفتوحة وحدها أمامهم . فأما القضاء وإدارة الأعمال فكانت وقفاً على أبناء الأغلبية الدينية فى البلاد . ويسير تفسير هذا التقسيم فى ذلك الظرف الذى كان الحكم فيه للأتراك والذى كان الحاكم فيه تابعاً لدولة الخلافة الإسلامية . على أن بطرس غالى رأى فى ذلك منافاة لروح الزمن ، وبخاصة فى عصر بدأت مصر تنقل فيه النظم الأوربية بإنشاء المحاكم المختلطة وبخضوع المصريين لقضاء جماعة لا يختلفون عنهم فى الدين فقط ، بل فى الجنسية وفى اللغة أيضاً . لهذا عين حين وجوده فى الحقانية عدداً من الأقباط فى وظائف القضاء . ولعل هذا التصرف وما إليه من مثله هو مادعا جماعة من الذين خاصموه فى أثناء حياته لاتهامه بالتحيز لأهل طائفته .

وبقى فى وكالة الحقانية حتى عين ناظراً للمالية فى سنة ١٨٩٣ . على أن أحوال مصر السياسية تغيرت فى هذه الفترة تغيراً كبيراً كان لبطرس بك غالى رأى فيه معروف . ذلك أنه لما حدثت الثورة العرابية وانتهت إلى تدخل الإنجليز وهزيمة

العرابيين فى التل الكبير وتشاورهم فى الأمر كان من رأى بطرس أن يلتمسوا عفو الخديو وأن يركنوا إليه . وقد أوفده القوم يومئذ بعريضة إلى الخديو توفيق فيها هذا المعنى . ومع أنه لم يظهر له عمل مباشر فى الثورة ، مما يدل على أنه لم يكن من المطمئنين إليها ، فإن التجاء العرابيين إليه يدل على أنه كان موضع عناية الخديو توفيق وعطفه كما يدل من جهة أخرى على أن ذكاءه وفطنته السياسية كانا موضع تقدير الذين التجأوا إليه ورأوا فيه خير واسطة للتفاهم بينهم وبين الحاكم الذى ثاروا عليه .

وحياة بطرس باشا كانت كلها بعد ذلك حياة وساطة سياسية لم تكن الحاجة إليها ماسة أيام حكم توفيق لما كان بينه وبين الإنجليز من تمام التفاهم ، ولكنها كانت ضرورية وكانت منتجة أيام حكم الخديو عباس الذى كان يثق به ويطمئن إليه فى حل الخلاف الكثير الحدوث بينه وبين لورد كرومر قنصل إنجلترا العام فى مصر .

ولعل الحوادث التى مرت بمصر وشهدها بطرس باشا قبل أن يصل إلى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير فى توجيه سياسته وزيراً . فقد حضر نائباً عن الحكومة المصرية فى لجنة التصفية ووقف على ميول الأجانب وعلى أطماعهم ، ثم رأى جهود إسماعيل للوقوف فى وجه تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهى إلى إقصائه عن العرش . ثم إنه حضر وشهد تطورات الثورة العرابية وما آلت إليه من تشتيت الثوار والحكم على زعمائهم بالإعدام واستبدال ذلك الحكم بالنفى . وكان بعد ذلك على اتصال بالمؤتمرات والمحادثات التى حصلت بقصد جلاء الجيوش الإنجليزية عن مصر ، وما كان من وعود الإنجليز فى ذلك وتدخلهم برغم هذه الوعود فى الشئون المصرية ووضعهم يدهم على الإدارة المصرية . ثم كانت بعد ذلك حادثة فرمان الخديو عباس ووقوف إنجلترا فى وجه تركيا باسم الدفاع عن حقوق مصر ، كما كانت حادثة الحدود واعتذار الخديو عباس برغم اعتزازه بملكه الشاب للقائد كتشنر .

وبطرس باشا كان على ذكائه وقوة إرادته وسعة حيلته رجل سلم وعمل مطمئن ، مما جعله بعيداً عن الحركة العرابية إلى أن جاء دور السلم والوساطة . كما كان من طائفة الأقلية الدينية فى وقت كانت النعرة الدينية فيه متغلبة على كل نعرة أخرى . أضف إلى هذا كله اتصاله بنوبار وتكوين عقله تكويناً سياسياً لا تكوين زعامة شعبية مقصور غرضها على الدعوة للمثل الأعلى . هذه الظروف كلها تفسر لك سياسته من بعد ارتقائه إلى منصب وزارة المالية فى سنة ١٨٩٣ وانتقاله إلى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقائه فيها حتى مع تقلده رياسة الوزارة فى سنة ١٩٠٨ برغم ماجرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزراء لوزارة الداخلية .

وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان ، برغم ما قدمنا من ميله للسلم وللحيلة ، موضع ثقة الخديو الشاب عباس . فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة فخرى باشا التى أحلها عباس محل وزارة مصطفى فهمى فى سنة ١٨٩٣ برغم لورد كرومر والتى لم تبق لذلك فى مناصب الحكم غير يوم واحد . ثم إنه حل بعد ذلك محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشكلات التى كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كرومر . على أن عمله فى وزارة المالية وفى وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفء حريص على بقاء المساواة فى المعاملة بين المصريين جميعاً من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين من غير أن يبرز ليكون محلا لحكم التاريخ حتى كانت سنة ١٨٩٩ إذ وقع مع إنجلترا فى ١٩ يناير اتفاقية السودان التى كانت بعض ما حاربه به خصومه فى حياته وبعض ما اتخذه قاتله إبراهيم ناصف الوردانى حجة له فى إقدامه على ارتكاب جريمة القتل السياسى ، والتى ماتزال موضع حنق المصريين عليها ونظر كثيرين منهم لها على أنها عمل من أعمال خيانة الوطن .

وقد نعجب إذ نرى بطرس غالى ولم يكن فى سنة ١٨٩٩ إلا ناظراً للخارجية متضامناً مع سائر زملائه النظار فى سياسة الدولة العامة يحمل وحده وزر هذه

الاتفاقية . فإخلاء السودان فى سنة ١٨٨٤ بأمر إنجلترا واستعادة فتحه بعد ذلك بأمر إنجلترا أيضاً لم يكن من عمل نظارة الخارجية وحدها ، بل كان من عمل مجلس النظار كله . وقد كان بطرس وزيرا للمالية فى سنة ١٨٩٣ مع فخرى ثم مع رياض باشا الذى ألف الوزارة حلا للإشكال بين الخديو ولورد كرومر ، ثم انتقل وزيراً للخارجية لما شكل نوبار الوزارة فى سنة ١٨٩٤ وظل فى منصبه بعد استقالة نوبار وحين شكل مصطفى باشا فهمى الوزارة من جديد . وفى هذه الأثناء كانت الأعمال لاستعادة السودان جارية حتى سقطت الخرطوم وأم درمان وتمت استعادة السودان فى سنة ١٨٩٨ ، فهل يسأل وزير الخارجية وحده إذا هو وقع بعد ذلك اتفاقاً باسم حكومته !

كان خصومه يقولون : ولكنه المسئول الأول والمباشر ، فهو الذى وقع باسمه وبيده . ثم إنه فضلاً عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسئولية لأنه كان أقواهم وأذكاهم وأقدرهم . بل لعله هو الذى أقنعهم بالقبول . وماذا تريد من مصطفى فهمى والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستماتة والضعف . لقد كان بطرس هو العنصر القوى الوحيد فيهم ، فهو لذلك مسئول دونهم . ثم لنقل الحق أيضاً . إن بطرس قبطىٌ وكان للأقباط زعيماً ، والأقباط كانوا يومئذ وفى نظر دعاة الحركة الوطنية المصرية متهمين بمالأة الإنجليز على بلادهم . فبطرس إذن قد وقع اتفاقية السودان ممالأة للإنجليز وتفريطاً فى حقوق بلاده .

كذلك كان يقول خصوم بطرس . وكذلك مايزال البعض يحسب ، ولو فى دخيلة نفسه ، حرصاً على وحدة الأمة المقدسة فى الأيام الحاضرة . لكن للتاريخ حكماً آخر تجب المجاهرة به إحقاقاً للحق . فمصر يوم اتفاقية السودان كانت تابعة لتركيا وكانت لا تستطيع أن تمضى اتفاقاً تنقص به من سلطتها أو سيادتها على أى جزء من الأجزاء التابعة لها ، أو التى كانت تابعة لها وعادت إليها . وقد أبلغت

الحكومة المصرية حكومة الباب العالى أن إنجلترا تريد أن تتفق مع مصر اتفاقاً مقصوراً على إدارة السودان ، لتتمكن بذلك من إلغاء الامتيازات الأجنبية فيه ولتستطيع بما تبيحه لها الشركة فى الإدارة أن تسهر على أملاكها الإفريقية من غير أن يضر ذلك حقوق مصر فى السودان باعتباره ولاية منها تابعة لحكم الخديو . وبالرغم من تكرار الكتابة فى هذا الأمر إلى الحكومة التركية فإنها لم تحرك ساكناً ولم تشر بنصيحة ولم تظهر مجرد استعدادها لتعضيد مصر إذا هى وقفت بإزاء إنجلترا موقفاً خاصًّا . وعلى ذلك ألفت مصر نفسها وحيدة بإزاء إنجلترا مضطرة أن تحل معها هذه العقدة بعد أن كانت فرنسا قد ضربت قبيل ذلك فى حادثة فاشودة بما قطع كل رجاء فى مداخلتها كما انقطع الرجاء فى مداخلة غيرها من الدول . مع هذا لم يخرج اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ السودان من ولاية صاحب عرش مصر ولم يجعل إنجلترا شريكة فيه . بل هو اتفاق مقصور على إدارة السودان بنصه وبتفسير لورد كرومر وغير لورد كرومر من كتاب الإنجليز وساستهم إياه وبتنفيذه فى المدة التى تلت عقده . فقد كان حاكم السودان العام ، برغم أنه حاكم عسكرى فى بلاد خاضعة للحكم العرفى ، لا ينفذ أمراً ولا ينشر قانوناً إلا بعد أن يبعث به إلى مجلس النظار فى القاهرة ، وبعد أن يرد المجلس إليه الأمر أو القانون أو الإرادة السنية كما هى أو منقحة بما تراه الوزارة المصرية . فإذا كان قد حدث بعد ذلك أن استفادت السلطة الإنجليزية من ضعف الوزارات التى وليت الحكم فى مصر وأن مدت ادعاءاتها إلى أكثر مما يبيحه اتفاق سنة ١٨٩٩ ، فليس الذى وقع الاتفاق المذكور فى الظروف التى أشرنا إليها مسئولاً عن شىء منها .

هذا هو حكم التاريخ ، وهو الحق فى أمر اتفاقية السودان وموقف بطرس باشا غالى منها . على أن ما تلاها من نشاط الحركة الوطنية بزعامة المغفور له مصطفى باشا كامل ومن طعنها على المعاهدة واتخاذها ذريعة للهجوم والمقاومة ، جعل الوزارة

المصرية أشد ميلاً للتفاهم مع الإنجليز تفاهماً يخفف من حدة هذه الحركة إن كان ذلك مستطاعاً ، ويقف فى وجه طغيانها على النظام وعلى الأمن إذا خشى منها عليهما ، ويعطى لاتفاقية السودان معنى غير معناها الأول يخول إنجلترا فيه سلطاناً لم يقصد الاتفاق تخويلها إياه .

وكانت الحركة الوطنية فى ذلك الحين متجهة إلى الاستفادة من خلاف الدول ، معتمدة على ما يمكن أن يكون لتدخل فرنسا من قيمة فى تحرير مصر . وبرغم فشل مرشان عند فاشودة وانسحابه وتضعضع سلطان فرنسا لهذا السبب ، فقد ظلت أنظار مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى متجهة صوب باريس حتى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودى الذى التزمت به فرنسا ألا تعترض إنجلترا فى مصر . فلما تم هذا الاتفاق شعر المصريون جميعاً بازدياد مركز إنجلترا فى مصر قوة . وكان النظار المصريون المتصلون بالسلطة الإنجليزية فى مصر بسبب مراكزهم أكثر من غيرهم شعوراً بهذه القوة بل إيماناً بها واستعداداً لتقديم القرابين لتهدئة ثوائر غضبها .

وفى هذه الظروف بلغ سلطان إنجلترا فى مصر أوج قوته . فلم يكن أمر ما ، بالغة ما بلغت تفاهته ، يبرم أو ينقض من غير إقرارهم عن طريق موظفيهم الذين احتلوا كل مناصب الدولة الرئيسية والذين كانت لهم الكلمة النافذة على الموظفين المصريين مهما يكن منصب الموظف الإنجليزى صغيراً ومنصب الموظف المصرى كبيراً . كان تلغراف جرانفل ، الذى يقرر أن مشورة إنجلترا واجبة الاتباع فى مصر ، لا يقف عندما تبديه الدولة المحتلة عن طريق عميدها من رأى ، بل يمتد إلى المستشار الإنجليزى وإلى مفتش الداخلية وإلى ملاحظ الطرق وإلى كل إنجليزى أيًّا كانت مكانته . وبإزاء هذا السلطان الإنجليزى النافذ فى مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو وتقوى ، وكانت الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذى لا يقبل مذلة ولا خضوعاً قد ملأت النفوس حتى كادت تفيض عنها . وكمظهر لهذا التنافر بين

السلطة الحاكمة من ناحية والشعب المصرى من ناحية أخرى ، وقعت حادثة دنشواى بإصطدام جماعة من الضباط الإنجليز الذين كانوا يصيدون الحمام فى أثناء ذهابهم من القاهرة إلى الإسكندرية مع أهل قرية دنشواى فى يونيو سنة ١٩٠٦ اصطداماً انتهى إلى موت الكابتن بول الإنجليزى ، وإلى تأليف المحكمة المخصوصة برئاسة بطرس باشا غالى الذى كان وزيراً للحقانية بالنيابة لغياب وزير الحقانية بالإجازة ، وإلى صدور وتنفيذ ذلك الحكم الجائر الذى يعتبر مثلاً من أمثلة البربرية والوحشية فى أشد عصور الإنسانية ظلاماً ، والذى أعدم بموجبه أربعة وجلد ثمانية أمام أنظار أهل دنشواى المفجوعين فى أهلهم وعائليهم ، عدا الذين زجوا منهم فى غيابات السجون .

وكانت رياسة بطرس باشا للمحكمة المخصوصة التى أصدرت الحكم مما أخذ به وليم عليه ، ولكن دون لومه ومؤاخذته على اتفاقية السودان . ويقول المدافعون عن بطرس باشا فى هذه المسألة : إن حكم دنشواى كان حكماً سياسيًّا أملته السلطة الإنجليزية التى أمرت بإرسال المشانق قبل أن يصدر ، إذ أرادت أن تضرب بكل صرامة وحزم – وأنه كان صادراً من أغلبية انجليزية لأعضاء المحكمة ، فلم يكن للأقلية الموجودة فيها ، بحكم القانون ، بد من إقراره وتوقيعه . وبطرس باشا كان رئيساً للمحكمة المخصوصة بحكم القانون الذى ألقى بهذه الرئاسة إلى ناظر الحقانية ، فكان لا مفر له من الخضوع لرأى أغلبية الهيئة التى يرأسها والتى أصدرت ذلك الحكم الجائر .

وهذا الدفاع على ظاهره من الوجاهة لا ينهض حجة لتبرير عمل بطرس باشا إلا إذا كان هو معتقداً عدالة الحكم الذى أصدره وإنسانية تنفيذه مما لا يصدق على رجل كان له من عواطف الخير والإنسانية ما كان لبطرس . ذلك بأن الرجل الذى يجلس رئيساً لهيئة قضائية يعهد إليها بتطبيق العدل يجب ألا يخضع لصوت غير

صوت الضمير ولاعتبار غير اعتبار العدل المجرد من كل هوى . فأما أن كانت المحكمة المخصوصة ليست هيئة قضائية وكانت صورة هزلية لعدل لا وجود له وإنما تملى السياسة أحكامه ، فكان حريًّا برجل له ما كان لبطرس من دهاء ومقدرة أن يصل من تخفيف الجور إلى أقل حدوده وألا يرضى هذا التنفيذ الذى بعث إلى قلب الإنسانية جمعاء رعشة اشمئزاز وتقزز واستفز فى نفسها أشد المقت لعمل لا يمكن أن يكون من الإنسانية المهذبة ولا من الإنسانية المتوحشة فى شىء .

وكان حكم دنشواى خاتمة سيئة لحياة سياسى ماهر هو لورد كرومر . فعلى أثر صدوره وتنفيذه بدأت مكانة إنجلترا ، كأمة مدنية ونظام ، تتزعزع فى نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم . وبعد أن كانت الوكالة البريطانية معتبرة ملجأ العدالة فى مصر وكانت ألوف العرائض والشكاوى ترفع إليها طلباً للنصفة من ظلم الحكام بل من حيف القضاء ، تراجع المتظلمون مذعورين أن فتحت أشباح المشانق والمشنوقين والمجالد والمجلودين عيونهم على منظر بشع يتردد الإنسان فى التحديق به بل يولى منه فراراً ويمتلئ منه رعباً . لذلك لم تطق الوزارة الإنجليزية أن تؤيد عميدها فى مصر فاضطر إلى الاستقالة فى مارس سنة ١٩٠٧ كما اضطرت الحكومة البريطانية إلى الموافقة على العفو ، بفضل جهاد مصطفى كامل ، عن مسجونى الدنشويين .

وخلف السير الدون غورست لورد كرومر كعميد لإنجلترا فى مصر ، وأراد أن يسلك فيها سياسة أخرى هى التقرب إلى الخديو الذى كان مؤيداً حتى يومئذ لمصطفى كامل وللحركة الوطنية . وربما خيل إلى السير غورست يومئذ أن الخديو كان قديراً على توجيه حركة مصطفى كامل وجهة أخرى مادام هو الذى خلق هذه الحركة وغذاها ، متناسياً أن الزعيم الشعبى مرتبط دائماً بالمبادئ والمثل العليا التى نادى بها ولو اعتقد عدم إمكان تنفيذها . أو لعله قصد بسياسة الاتفاق مع الخديو إلى

ما حدث بعدها من انفصال الحزب الوطنى عن عباس الثانى ووقوفه منه موقف العداوة الصريحة فى بعض الظروف . على كل حال فقد خلقت سياسة غورست فى مصر جوًّا جديداً ووجهت الأنظار إلى نواح لم تكن تتجه إليها طويلاً من قبل .

ومما اتجهت إليه الأنظار يومئذ اتجاهاً خاصًّا المطالبة بالدستور وتقرير سيادة الأمة . فقد تألف حزب الأمة وجعلت « الجريدة » ، وعلى رأسها الأستاذ لطفى بك السيد ، يدعون إلى الدستور بكل مالديهم من قوة ، ويدللون على فساد نظام مجلس الشورى فساداً بيناً . وإذ كان حزب الأمة يعبر عن الرأى المعتدل فى مصر فلم يكن فى مقدور الحكومة ألا تستمع له فى هذا الشأن . لكن وزارة مصطفى فهمى كانت قد سلخت فى دست الأحكام ثلاث عشرة سنة منفذة لسياسة خاصة لا تتفق مع السياسة الجديدة التى جاء بها السير غورست ولا تتفق مع تطور المطامع المصرية . لذلك استقالت فى سنة ١٩٠٨ وعهد الخديو إلى بطرس باشا بتشكيل الوزارة الجديدة . فشكلها ، وكانت فاتحة أعماله فيها أن قررت الحكومة علنية جلسات مجلس الشورى وحضور الوزارة المجلس لمناقشة أعماله وللإجابة عَمَّا يوجه إليها من الأسئلة ، وأن عينت البرنس حسين كامل (السلطان حسين) رئيساً للمجلس زيادة لهيبته وإحترامه . لكن هذه الخطوة الأولى كانت دون ما تطلب الأمة بمراحل ، فلم تخفف لذلك من المطالبة بالدستور بل زادتها قوة واندفاعاً . وإذ كان بطرس يميل إلى تحقيق هذا المطلب فقد سعى سعيه لدى معتمد إنجلترا كى يضع نظاماً يقرب مصر من الحكم الذاتى .

وكان السير غورست لما يصل أمام الرأى العام البريطانى إلى شىء من مثل مكانة لورد كرومر . لذلك رأى أن حركة الصحافة حركة عنيفة فى مصر قد تحول بينه وبين موافقة الحكومة البريطانية على طلب الحكومة المصرية ، كما رأى أن حالة الأمن ليست كذلك مما يؤيده عند وزارة خارجيته . لذلك طلب أن يبعث قانون الصحافة

الذى سن فى سنة ١٨٨٢ مبيحاً للإدارة حق إنذار الصحف وتعطيلها ، وأن يوضع قانون النفى الإدارى لإرهاب الجناة . والظاهر أن حرص بطرس باشا على تحقيق خطوة جديدة فى سبيل الحكم الذاتى كان شديداً . وكثيراً ما يلجأ السياسى الشديد الحرص على تحقيق غاية معينة يراها ذات خطر فى حياة أمته ، إلى قبول أشياء لا يقبلها غيره ، مادام يعتقدها أشياء مؤقتة قليلاً ضررها إلى جانب الغاية العظيمة المرجوة . لذلك لجأ بطرس بإزاء رفض زميليه سعد زغلول ومحمد سعيد لطلب المعتمد البريطانى بعث قانون الصحافة وإصدار قانون النفى الإدارى ، إلى وساطة الخديو عندهما ، فأوفد سموه من رجاله من أقنعوهما . فصدر القانونان فى سنة ١٩٠٩ فأحدث صدورهما فى البلاد دويًّا هائلاً ووقفت الصحافة ووقف الرأى العام يندبان الحرية المضاعة بغير ثمن إلا إرضاء المطامع الإنجليزية فى حرصها على قهر مصر وإذلالها .

وامتدت هذه الضجة إلى تناول مسألة كانت تتناول الوقت بعد الوقت فى الصحف ، ولكنها تنوولت هذه المرة بحدة لم يسبق لها نظير . ذلك أن الصحافة القبطية فى مصر كانت تدافع دائماً عن بطرس باشا وكانت تتهم الصحافة الإسلامية بالتعصب الدينى فى مهاجمتها إياه . وكانت النعرة الدينية قوية فى ذلك الحين كما قدمنا . لذلك كانت العصبية الدينية تدفع الكتاب إلى حدود غير معقولة ولكن لها نظائرها حتى فى أشد الأمم تحضراً . وأقرب هذه النظائر مالا يزال يبدو الوقت بعد الوقت فى صحافة الأمم المسيحية خاصًّا باليهود . وكانت بعض الصحف الإسلامية من جانبها لاتنى عن مجاراة الصحف القبطية فى هذا المضمار وسبقها . على أن ما وقفنا عليه من مصادر مختلفة أكثرها إسلامى يقنعنا بأن بطرس باشا لم يكن متعصباً لأبناء طائفته تعصب عداوة لأغلبية البلاد الدينية . يؤيد ذلك أنه لما أنشأ الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨١ كان من بين الخطباء يوم افتتاحها الأستاذ

الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله نديم وغيرهم ، وأنه كان بعد ذلك عظيم الوفاء لكثير من أصدقائه المسلمين متصل البر بكثير من العائلات الإسلامية . من ذلك أنه كان أول من ذهب إلى المغفور له الشيخ سليم البشرى على أثر إقالة الخديو إياه من مشيخة الأزهر يسأله ما يستطيع أن يقدمه له من خدمة . وكان كثيراً ما يقضى حاجات أفراد من المسلمين من غير أن تكون له بهم كبير معرفة ، كما كان يصلهم صلة أبناء طائفته . على أن بره بأبناء طائفته أمر طبيعى . وخير ما سمعنا عنه فى هذا أنه كان يتوانى للأقباط جميعاً كما كان يتوانى لأفراد من المسلمين ، وأنه هو الذى صنع الطائفة القبطية فرفعها من مستواها الضعيف الذى كانت فيه إلى مستوى أسمى منه بكثير . فالجمعيات القبطية والمدارس القبطية والمنشآت الخيرية القبطية يرجع الفضل فى أكثرها له هو أكثر مما يرجع لأى شخص آخر ، كما يرجع الفضل له فى فتح أبواب الوظائف العامة للأقباط أسوة بالمسلمين .

واستمر يتابع ، بالاتفاق مع المعتمد الإنجليزى ، وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية ، وقبل أن يتمه كى يصدر القانون به طلبت شركة قناة السويس من الحكومة المصرية مد امتيازها أربعين سنة أخرى بعد سنة ١٩٦٩ . وكانت الحكومة المصرية يومئذ مستعدة لقبول الطلب . لكن حركة الرأى العام المصرى فى هذا الشأن كانت قوية اضطر أولو الأمر معها أن يعرضوا المشروع على الجمعية العمومية المصرية وأن يعدوا بأن يكون رأيها فيه قطعيًّا . وفى أثناء نظر هذا المشروع بالجمعية وفى فرصة هياج الرأى العام وتوتر أعصابه ، فكر إبراهيم ناصف الوردانى فى قتل بطرس معتبراً إياه خائناً لوطنه بسبب توقيعه اتفاقية السودان ورياسته محكمة دنشواى . روت «الجريدة» الصادرة فى ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ وصفاً للحادث مانصه «بق – الباشا – كذلك حتى كان يوم أمس نزل كعادته فى جماعة من الموظفين ، وعند باب نظارة الحقانية صافحهم وانصرف ومعه النائب العمومى ، فما كاد يضع رجله على

سلم عربته حتى أصابه الرصاص المتعاقب من غدارة شاب لعب الشباب برأسه وتصور ما تصور وتجسمت فى نفسه الخيالات فلم ترعه هيبة الوزير ولا وقار الشيخ ولا خوف العقاب . . . أصابه الرصاص فى العنق والكتف والبطن فخر صريعاً فحمل إلى أودة ناظر الحقانية ثم إلى مستشفى الدكتور ملتون . وهناك زاره سمو الخديو وجميع الوزراء والسير غورست والأمراء وأعيان الأمة وكلهم يرجون له الشفاء العاجل . فلما كانت الساعة السادسة عملت له عملية جراحية لإخراج الرصاصة الباقية ، ولكن كانت ، مع الأسف ، قد نسفت الأمعاء ونفذت فى صدر المعدة » .

وقضى رحمه الله فى الساعة الثامنة والربع من صبيحة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ودفن فى اليوم التالى فى مشهد مهيب . واليوم ترقد رفاته فى كنيسته القائمة على جانب شارع الملكة نازلى الذى كان من قبل شارع عباس[1] .

* * *

هذه حياة بطرس غالى . والقارئ يرى كيف كانت حياة سياسى عظيم ومحسن كبير . ولئن كان قد أخطأ التقدير فى بعض مواقفه فهو لم يقصد يوماً إلى غير خدمة بلاده . ولذلك كانت آخر كلمة فاه بها حين احتضاره « يعلم الله أنى ما أردت غير الخير لبلادى » . وكانت كلمة حق .

---

(١) شارع رمسيس الآن .

obeikandl.com

مصطفى كامل باشا

فى عصر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بينما أنا جالس مع أحد زملائى طلبة مدرسة الحقوق الخديوية إذ ذاك على باب داره ، جاز الطريق أمامنا رجل ممتط جواداً ، فلما كان بإزائنا وقف برهة فحيانا وقال «أبقى الله حياتكم ، الباشا توفى» . وكان زميلى من المتشيعين للحزب الوطنى المتطرفين فى تشيعهم . فلما سمع قول الناعى سأله فى لهفة : مصطفى باشا كامل ؟ فأجابه الرجل منطلقاً جواده : نعم ! ولكم طول البقاء ! وتركنا أنا وصاحبى واجمين من هول الخبر وإن كان حديث الباشا ومرضه والخوف على حياته بعض ما تواتر فى ذلك الحين . وبعد زمن قصير تركت صاحبى عائداً إلى بيتى فألفيت على الناس فى الشوارع والحوانيت من أثر الذهول ما يدل على أن نعى الباشا إليهم مس من قلوبهم أدق أوتار الحزن والألم . ولم يستقر بى المقام فى البيت دقائق حتى جاء زميل يبلغنى الخبر ويعلن إلى ما قررته المدارس كلها من

الاشتراك فى تشييع جنازة الزعيم العظيم : وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد عام فى العاصمة وفى مصر كلها لم يشغل الناس شىء فيه غير جنازة الزعيم الشاب . فالمدارس والهيئات الوطنية كلها كانت تفكر فى تنظيم الجنازة ، وأهل الريف كانوا يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها ، والحكومة كانت تعد وسائل الأمن والنظام ، والأجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسواد ورأوا أهلها اتشحوا بأسباب الحداد كانوا يفكرون فى العمق الذى تغلغل إليه الروح الوطنى من سويداء نفس هذه الأمة . فلما سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواى الذين حكمت المحكمة المخصوصة عليهم ، ثم كان لسعى مصطفى كامل أكبر الأثر فى العفو عنهم ، صمت كل ما فى المدينة ولم يبق بها أثر لحياة إلا فى مشهد وداع هذا الراحل رحلة الأبد . قال المرحوم قاسم أمين فى كلماته التى نشرت بعد موته ، أى بعد شهرين اثنين من وفاة مصطفى كامل ،

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى .

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة .

« ولكن هذا الإخاء فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان .

« أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع

أنحاء القطر.

« هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل » .

ولم يكن عجيباً أن يكتب قاسم أمين على هدوء نفسه وحسن تقديره هذا الذى كتب . ولم يكن عجيباً أن يحرك مصر من أقصاها إلى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب . فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الأمة تنسى مظالم الماضى أيام حكم إسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها فلم يعن إلا بتخفيف الأعباء المالية ناسياً كل اعتبار غير تخفيض الضرائب . ليخيم على البلاد الجهل ، وليكن الغرض الأسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطانى ولضعفهم أمامه ، فذلك كله هين ويسير مادامت الضرائب المرهقة ومادامت السخرة والكرباج قد ألغيت . فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القومية وللكرامة الإنسانية ، بعث القدر مصطفى بشيراً بهذه الحاجات السامية رفيع الصوت ، عالى الكلمة ، طلق اللسان ، قوى الجنان ، حلو الأسلوب ، يتغنى لقومه بما تشعر به نفوسهم فى غور أعماقها . فكان طبيعياً أن يلتف الظمأى حول هذا الورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لها نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذاً ومتنفساً . ليكن ذلك الكلام غير ذى غناء . ولتبق القوة الغاشمة قديرة على أن تسير فى طريقها ، ترفع من شأن المصالح المادية على حساب حاجات النفس المعنوية ، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذى يشدو باسم الوطن ومن محبة الناس له شيئاً . ألست ترى إلى الجمع الحافل من العمال يسد جوعه على مائدة ذى المال جزاء كدحه طول نهاره ، ثم ما يلبث أن يذهب

لسماع الشاعر أو المغنى يروى عنده ظمأ روحه . وهو لهذا المغنى أشد حباً منه لمن يمسك عليه حياته المادية ، لأنه يحس فى الشاعر معنى إنسانياً ، فى حين أن سعيه لدى المالك وجزاءه من سعيه لا يجزيه إلا الإبقاء على حياته الحيوانية البحتة .

لذلك كان جزاء وفاقاً أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل . وكان حقاً أن يرى قاسم أمين فى وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته ، وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر .

* * *

ولد مصطفى كامل فى سنة ١٨٧٤ ، أى فى السنة التى ولد فيها الخديو عباس حلمى الثانى . وقد بعث به أبوه على أفندى محمد ، وكان مهندساً ، إلى مدرسة أم عباس ، فمدرسة القربية الابتدائيتين حيث تلقى دراسته الأولى . وفى أواخر أيامه بهما توفى أبوه وكفله أخوه حسين واصف باشا وزير الأشغال السابق ، وبعد الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة التجهيزية – الخديوية الآن – لتلقى دراسته الثانوية . وفيها ظهر جريئاً أكثر من زملائه جميعاً . وجرأته هى التى جعلته دون سائر إخوانه يذهب بنفسه فيقابل ناظر المعارف إذ ذاك على باشا مبارك يشكو له حيف نظام الامتحان حيث أدى إلى رسوبه ورسوب زملائه . وإعجاب ناظر المعارف بهذه الجرأة هو الذى جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدى ذلك إلى نجاح مصطفى وكثيرين من زملائه . فلما أتم دراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية فى العام المدرسى ١٨٩١ – ١٨٩٢ . ومن ذلك التاريخ بدأ ينشر رسائل ومقالات فى الصحف ، كما أنه ، على ما يذكر مؤرخوه ومن بينهم مدام جوليت آدم ، ارتبط بالخديو السابق عباس حلمى الثانى برابطة كانت ذات أثر مباشر فى حياته كلها بعد ذلك .

ولم يكن مصطفى كامل هو وحده الشاب الذى اصطفاه عباس الثانى ، ولا كان

هو وحده الذى أثر ارتباطه به فى حياته ، بل لقد اصطفى كثيرين من الشبان يومئذ ممن توسم فيهم الذكاء والإقدام فعاونهم فى دراساتهم وعاونهم بعد الدراسة ، وأوفدهم إلى أوربا لمهمات سياسية يؤيد بها سلطته ومركزه كحاكم مصر الشرعى . وسياسة عباس الثانى كانت معارضة تمام المعارضة لسياسة الإنجليز ، فإنه ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجد نداً له فى قصر الدوبارة لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلى فى البلاد بقوتها وبجيش احتلالها وباستئثارها بكل المناصب الرئيسية فى الحكومة . وهو ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده وأراد ، مدفوعاً بحماس الشباب ، أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التى اضطر معها إلى الاعتذار عن ملاحظته التى أبداها للقائد كتشنر حين استعراضه الجيش المصرى بالسودان . وكان المتقدمون فى السن من المصريين الذين شهدوا عهد إسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حركة عرابى واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الإنجليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر – كان هؤلاء المتقدمون فى السن أشد الناس تردداً فى مشاركة الأمير الشاب الذى اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره مطامعه ومطامحه ، فلم يكن يستطيع الاعتماد إلا على الذين لم يهون عليهم ظلم إسماعيل استبداد الإنجليز والذين لم يضعف الجهل أو البله فى نفوسهم معنى الحرية . وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان فى مقدمتهم . فقد جمع إلى الشباب إقداماً جاوز حدود الإقدام مع نشاط عصبى لا يهدأ إلا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة . وهو لذلك لم يقنع بدراسة الحقوق وبكتابة المقالات فى الصحف بل أنشأ ، وما يزال فى أول سنى طلب الحقوق ، مجلة أسماها « المدرسة » ، صدر أول أعدادها فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وجعل نفسه بها زعيماً لزملائه فى الدرس يلقى عليهم النصائح ويرشدهم إلى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات التى يرشده إليها اختباره الشاب فى بطون

الكتب والنشرات الدورية .

وفى يونية سنة ١٨٩٢ سافر لأول مرة إلى فرنسا ليؤدى امتحان الحقوق الأول بباريس . وكان طبيعياً أن تأخذ بلبه الغض حضارة الغرب وأن تؤثر فى أعصابه الحساسة مظاهر الحياة الناشطة والحرية المنظمة . وكانت فرنسا يومئذ قد أفاقت من كبوة سنة ١٨٧٠ حين قهرتها ألمانيا ، وجعلت تذكر فى حسرة تدليها من الصف الأول فى تصريف سياسة العالم . والشعور بالألم يحفز الإحساس ويفيض على اللسان الشكوى والطموح والأمل . وقد تأثر مصطفى كامل بهذا أيضاً كما تأثر بالحضارة وبالحرية . وزاده تأثراً معاودته الحضور للامتحان فى سنة ١٨٩٤ بباريس وفى أواخر هذه السنة بتولوز حيث نال إجازة الحقوق . ومن ذلك اليوم انفتحت أمام خياله الشاب آفاق الحياة وآمالها . ولعل مما وجه هذه الآمال وجهتها ما وقع له مصادفة من مقابلة الكولونيل بارنج شقيق لورد كرومر وما دار بينهما من حديث كان له فى العالم السياسى قيمة وترتبت عليه حملة صحفية اشترك هو فيها فحالفه الفوز فاتجهت إليه الأنظار فرسم له القدر بذلك طريق حياته . فقد نشرت جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه (حديث ذو شأن) موقعاً بإمضاء مصطفى كامل حاوياً لما دار بين المصرى الشاب وبين الضابط الإنجليزى من مناقشة أفضى فيها الضابط بكل سياسة إنجلترا فى مصر مؤيدة بالدليل القاطع الذى لا يعرف حجة ولا جدلا : دليل قوة السيف والمدفع . وأفضى فيها المصرى الشاب بحجة مصر وحقها وباعتمادها لنيل هذا الحق على قوته فى ذاته وعلى أوربا التى لا تنظر إلى إنجلترا فى وادى النيل بعين مطمئنة . ولعل هذه الفقرة من أقوال مصطفى كامل تفسر نشاطه فى المستقبل وتفسر السياسة التى اتبعها إلى سنة ١٩٠٤ حين تم الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا اتفاقاً انضمت إليه ألمانيا والنمسا . قال مصطفى : «إن لمصر أن تأمل من أوربا نجاتها وخلاصها . . . . ولنا أوربا بأسرها التى تناديها صوالحها العدة

بأن تنصرنا نصرة لتلك الصوالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها » .

وربما كان للخديو ومصطفى كامل ولكثير من المصريين يومئذ العذر فى اعتمادهم على أوربا والتجائهم إلى بعض دولها لمناوأة البعض الآخر . فلم تكن سياسة أوربا الاستعمارية قد استقرت يومئذ على أساس ارتضته دولها الكبرى واطمأنت معه كل واحدة منها إلى أنها نالت من الغنيمة الحظ الذى يكفيها والتى تكفى قواها للدفاع عنه ولاستغلاله وامتصاص دمه . بل كانت المنافسات ما تزال على أشدها بين إنجلترا وفرنسا . وكانت ألمانيا الناشئة متطلعة إلى مثل الإمبراطورية البريطانية . وكانت النمسا تنظر إلى ماضيها بعين الوجل إذ تراه يرتجف . وكانت سياسة الباب العالى فى الآستانة قائمة على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية . فلم لا تقوم سياسة مصر على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية . فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضاً ؟ ولم لا تستفيد مصر من تطلع هذه الدول جميعاً إليها لتتخلص منها جميعاً ولتصل إلى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلى الواسع النطاق الذى وصل إليه إسماعيل باشا ؟

والواقع أن فرنسا كانت ماتزال دامية الجرح لفشل سياستها بمصر بعد إحجامها عن الاشتراك مع إنجلترا فى التدخل المسلح سنة ١٨٨٢ . وكان ألمها أشد لأن هذه الضربة كانت فى حكم القاضية على ما نالته فى وادى النيل من نفوذ منذ حملة نابليون فى سنة ١٧٩٨ ، ومنذ اصطفائها محمد على وسعيد من بعده ، ومنذ قيامها بحفر قناة السويس ونشر الثقافة الفرنسية فى بلاد الفراعنة . وزاد الجرح إيلاماً أن الفشل لم يقف عند مصر بل تناول نفوذ فرنسا فى الشرق الأقصى بسبب تغلب إنجلترا عليها فى الهند وفى غير الهند من الممتلكات .

وقد أراد الخديو مستتراً وأراد مصطفى كامل أن يستفيد من هذه السياسة غاية

الاستفادة . وكانت القاعدة التى رسمت أن تطالب الدول الأوربية إنجلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر ، وأن تدفع الدول الأوربية إلى هذه المطالبة ببيان ما تقوم به إنجلترا فى وادى النيل من أعمال تدل على قصدها البقاء فيه . وكان حديث مصطفى كامل مع الكولونيل بارنج خطوة أولى وخطوة قوية فى هذا السبيل . ولم تمض على هذه الخطوة أسابيع حتى استصدرت إنجلترا من الحكومة المصرية دكريتو بتأليف محكمة مخصوصة تحاكم المصريين الذين يعتدون على جنود جيش الاحتلال أو ضباطه . وانتهز مصطفى كامل الفرصة للاستفادة من هذا الحادث أيضا . ثم كان أن جاء مسيو دلونكل عضو مجلس النواب الفرنسى إلى مصر فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ . ولعله وحده ، بل لعل الحكومة الفرنسية وحدها لم يكونا كل السبب فى حضوره . وقد استقبله مصطفى كامل بالإسكندرية وظل معه يصل بينه وبين المصريين من الطبقات المختلفة حتى غادر مصر عائداً إلى بلاده فى ١٣ أبريل من ذلك العام . وفى يوم ١١ أبريل أولم دلنكل للصحفيين بالإسكندرية وخطبهم فرد عليه مصطفى كامل شاكراً إياه وشاكراً فرنسا منتظراً منها معونة مصر وتأييدها .

ويذكر المرحوم على بك فهمى كامل فى السيرة التى وضعها لأخيه أنه بعد أيام من ذلك وساعة سفر على مع الأورطة البيادة الأولى أسر إليه مصطفى بأنه مسافر إلى باريس . وقد دهش على لهذا السفر المفاجئ على غير ميعاد وبلا سبب . وربما دهش له لسبب آخر حين ذكر له أخوه أن سفره إنما تدعو إليه « المسألة المصرية » لما يقتضيه هذا السفر وهذه المسألة والدعوة لها من طائل النفقة .

وسافر مصطفى إلى باريس . والحق أنه قام بالدعوة فيها بطريقة تدل على مهارة لا تتاح لفرد ، بل تدبرها جماعة ، وعلى نشاط لا يؤتاه كثيرون ، فذكر بداءة أنه موفد من قبل الحزب الوطنى المصرى . والحزب الوطنى على ما نعرفه نحن اليوم وعلى ما خلفه مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٨ لم يكن له وجود فى سنة ١٨٩٥ . لكن

الحزب الوطنى هو الاسم الذى كان يطلق على العرابيين . وإذن فهو يذكر الفرنسيين بهذا الحزب الذى تغلب عليه الإنجليز وحدهم حين تنحى الفرنسيون عن وادى النيل .

ثم إنه جعل أساس دعوته فضلا عن ذلاقة لسانه لوحة فنية بديعة لم يذكر لنا مؤرخوه من الذى نقشها ومن الذى أمر بنقشها ، وتمثل هذه اللوحة فرنسا واقفة فى قوس نصر قام على نصب رفيع يجرى النيل من تحته ، وقد قامت مصر على شاطئه مقيدة يحرسها جندى بريطانى ، وتقدم جماعة من المصريين إلى فرنسا يستنجدونها لتفك أسار وطنهم . ونقش على اللوحة بالعربية وبالفرنسية هذه الأبيات :

أفرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر إن مصر بسوء واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى تجتلى الخير أمة تهواك

ومن هذه اللوحة طبعت ألوف وزعت فى أنحاء العالم ونشرت فى كل صحيفة بعد أن قدمها مصطفى كامل بعريضة إلى رئيس مجلس النواب الفرنسى نيابة عن المجلس . ومما جاء فى هذه العريضة قوله :

« جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة — فرنسا — التى حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها ؟ وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الإسلامى الواثق بها ؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها . . فلتحى فرنسا محررة الأمم » .

كان لهذا العمل الذى قام به مصطفى كامل نيابة عما سماه الحزب الوطنى ضجة كبيرة فى العالم لفتت إليه الأنظار من كل صوب وجعلت الصحف فى مختلف الدول تهتف باسمه ، خلا الصحف الإنجليزية التى تناولت هذا العمل بالتقريع وعزته إلى

مقامات خاصة فى مصر. وشد هذا النجاح الأول من عزيمة مصطفى كامل ومكن له من الاتصال بكبار الساسة وما يزال فى مقتبل شبابه. وزاده جرأة وإقداما فجعل يطوف عواصم أوربا يتحدث فيها إلى الصحفيين والساسة مذكراً إياهم بوعود إنجلترا بالجلاء عن مصر وبمصالح دولهم فى أن يتم هذا الجلاء. ثم عاد إلى باريس فنشر فيها رسالة عن أخطار الاحتلال الإنجليزى لمصر. وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٥ كتب إلى لورد سالسبرى رداً على خطاب كان الوزير الإنجليزى قد ألقاه فى جلد هول عن سياسة أوربا نحو تركيا. وفى خطابه دافع مصطفى كامل عن المسلمين وعن دولة الخلافة. وفى ٣ يناير سنة ١٨٩٦ كتب إلى المستر جلادستون يطلب إليه، برغم وجوده بعيداً عن الحكم، تصريحاً فى شأن مصر. فأجابه جلادستون بخطاب وردت فيه العبارة المأثورة: «وافى زمن الجلاء فيما أعلم منذ سنين». وعاد بعد ذلك إلى مصر حيث أقام بها حتى أغسطس إذ شد رحاله إلى أوربا من جديد. وفى أثناء مقامه بمصر ألقى خطابه الأول بالإسكندرية كما كثر المتصلون به من المصريين. وفى هذه الفترة أيضاً نشرت له جريدة الإكليز الفرنسية التى تصدر بباريس حديثاً عن الحملة المصرية الإنجليزية إلى السودان معتبراً إياها وسيلة إلى إطالة أمد الاحتلال الإنجليزى إطالة لا نهاية لها. وفى هذه الفترة أيضاً اتصل علنا بالخديو اتصالا زاد العلاقات بين لورد كرومر وعباس توتراً. ثم سافر فى أول أغسطس إلى باريس حيث استمر هناك فى نشر الدعوة لمصر على أمل أن يحمل فرنسا وغيرها من دول أوربا على التدخل لمصلحتها. وفى هذه المرة كان يذكر الخديو عباس وميوله نحو مصر وأن «خطته هى انتظار الظروف ليستعد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهضومة». ولم يغفل ذكر المسلمين والخليفة، وبعد أن قام بنشر الدعوة فى باريس سافر إلى برلين ومنها إلى فينا فالآستانة حيث وصلها فى أواخر أكتوبر وقابل فيها جلالة السلطان. قال فى كتاب له إلى أخيه على فهمى كامل

«وكان جلالته ، كما أبلغنى الباشكاتب ، يود الإنعام على برتبة أو نيشان ولكنى أظهرت عدم رغبتى فى شىء من ذلك حتى لا تروج بضاعة الأعداء ضدى ويتهمنى أبناء الوطن العزيز بالعمل حباً فى الظهور وفى مثل هذه الألقاب الكاذبة» .

وكذلك جعل من أوربا ميدان نشاطه السياسى فكان يقضى فيها معظم شهور السنة متنقلا بين عواصمها متحدثاً إلى رجال الصحافة والسياسة فيها داعياً إياهم ليستوفوا إنجلترا وعودها بالجلاء عن مصر متحدثاً عن المصريين تارة وعن المسلمين طوراً ، كل ذلك فى لهجة أدنى إلى الاعتدال وإن وصفها الإنجليز بالتطرف . وقد بقيت من أساليبه فى الدعاية السياسية إذ ذاك تلغرافات الاحتجاج على ضرب الإسكندرية وغير ضرب الإسكندرية من الحوادث التى أدت إلى الاحتلال البريطانى لمصر . لكن السياسة الإنجليزية من جانبها كانت جادة فى السعى لتحقيق ما أفضى به الكولونيل بارنج إلى مصطفى كامل مما نشره فى يناير سنة ١٨٩٥ . فكانت الحملة لاسترداد السودان واستردادة بالفعل وعقد اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وفتور الدول وفى مقدمتها فرنسا عن القيام بأى سعى جدى لمناوأة إنجلترا فى مصر . ولكن ذلك لم يفت فى عضد مصطفى كامل ولم يضعف من نشاطه وإقدامه وإن يكن قد دعاه أو دعا الذين يعمل معهم للتفكير فى وسائل أخرى . وكان الالتجاء إلى الباب العالى بعض هذه الوسائل .

ولعل التفكير فى هذا الالتجاء كان من أثر انتصار الدولة العلية فى الحرب البلقانية . وفى هذه الأثناء كثر تردد مصطفى كامل على الآستانة وازداد إعجاب السلطان عبد الحميد به فأنعم عليه فى سنة ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الأولى ، وذلك فى ظرف شهرين اثنين كما أنعم عليه برتبة الباشوية بعد ذلك بسنين قلائل .

ولم يكن فى مقدور تركيا أن تقاوم إنجلترا فى مصر أكثر مما تقاومها أية دولة من الدول الأوربية . وهذه الظروف مجتمعة دعت مصطفى كامل والذين يعمل معهم

ليروا عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحدها والاعتماد على الدول لإجلاء إنجلترا عن مصر ، وليفكروا فى استنهاض الشعب المصرى نفسه بالتعليم وبدعوته لتقدير عزته القومية وكرامته الوطنية . وبهذه الفكرة تأسست مدرسة مصطفى كامل فى سنة ١٨٩٩ وصدرت جريدة اللواء فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . ومن ذلك الحين قامت سياسة مصطفى على أساس من توثيق عرى روابط مصر بتركيا باعتبارها الدولة المتبوعة من جهة والدولة الإسلامية القوية التى يمكن أن تتجه الشعوب الإسلامية لها بالرجاء من جهة أخرى . أما فيما يتعلق بسائر الدول الأوربية فقد ضعف رجاؤه فيها وإن ظل مستمسكاً منه بخيوط لعلها كانت بقية ذلك الأمل القوى القديم الذى جعله يرفع صوته عالياً خمس سنوات تباعاً فى عواصم أوربا ، أو لعلها الحرص الطبيعى فى الإنسان على ألا ينكر شيئاً من ماضيه . أما سياسته فى استنهاض الشعب المصرى فكانت تقوم على غرس الكراهية فى نفوس المصريين للإنجليز وحكمهم مصر وملء النفس المصرية بالإيمان بحق الوطن وبالتفانى فى محبته والإخلاص له وبالأمل دائماً فى ثمرة السعى الصالح لفائدته .

وعجيب مع ذلك كله ، ومع أن مصطفى كامل كان ذكياً جريئاً ، ومع أنه أمضى ما أمضى من السنين فى أوربا ، ومع إعجابه بالمدنية الأوربية إعجابا تكرر ذكره فى كتبه ورسائله – عجيب مع ذلك أنه كان رجعياً فى دعوته الاجتماعية . فلقد ظهر كتاب المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة فى سنة ١٨٩٩ . وكان منطقياً أن يلقى التأييد الحار من جريدة الزعيم الشاب أول ظهورها فى يناير سنة ١٩٠٠ . لكن الأمر كان على نقيض ذلك . فقد كان اللواء خصما لدوداً لقاسم أمين ولأفكاره وكان ميداناً لأشد المطاعن عليه . وظل اللواء كذلك فى شأن الإصلاحات الاجتماعية كلها محافظاً بل رجعياً مستمسكا بالقديم أشد الاستمساك . ولئن جاز لنا أن نعلل خصومته لقاسم أمين بما لقيه قاسم من تجهم الخديو له تجهماً حرم عليه وهو مستشار

بمحكمة الاستئناف أن يدخل القصر فإن تعليل رجعية اللواء فى الشئون الاجتماعية قد يبدو عسيراً إلا إذا كانت العلة هى بعينها التى دعت الأمير ورجاله للوقوف فى وجه قاسم وأفكاره . هذه العلة فى رأينا هى تمليق الشعب ، فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية التى يريد الأمراء والملوك استغلاله فيها . وتلك هى علة تمليق الأمراء والملوك والدعاة السياسيين لرجال الدين لأنهم حفظة هذه العادات والأوهام . فلو أن عباساً أو لو أن مصطفى كامل عضد قاسماً فى رأيه فى تحرير المرأة لأدى ذلك لفتور الشعب عنهم وتردده فى اتباعهم . ولو أن عباساً أو لو أن مصطفى كامل أراد أن يهز أوهام السواد فى الناحية التى تعرض الشيخ محمد عبده لهزها لفتر الشعب كذلك وتردد . والداعية السياسى تاجر يزن الأمور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحتويه . ومادام غرض كراهية الاحتلال البريطانى فى نفوس المصريين وملء قلوبهم بالإيمان الوطنى يعوق سبيل الدعوة للإصلاح الاجتماعى فليكن الداعية السياسى وليكن الأمير محافظاً بل رجعياً بل عدواً ظاهراً محارباً لكل فكرة حرة .

ونجحت دعوة مصطفى كامل أعظم نجاح . ذلك بأن نفوس الشباب فى مصر كانت متعطشة إلى نغمة جديدة تحيى فيها الأمل بحياة عزيزة . وكانت هذه النغمة قد اختفت منذ الحوادث العرابية إلى أن جاء مصطفى كامل . وبرغم وجود كثيرين ذوى مقدرة لا تقل عن مقدرته وذوى تفكير أنضج من تفكيره ، فلم يكن أحد منهم فى إقدامه ولم تكن حمية الشباب ملتهبة فى نفس هؤلاء التهابها فى نفسه . وعاون على نجاحه أسلوب جديد فى الخطابة لم يكن مألوفاً من قبل ، هو الأسلوب الوجدانى الذى امتازت به خطابات الثورة الفرنسية . هذا الأسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التى تندفع بها الجماهير من غير روية عادة إلى الغاية التى يريدها الزعماء . «لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة» ، «بلادى

بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر» ، «لو انتقل قلبى من الشمال إلى اليمين . . . إلخ» بهذا الأسلوب الوجدانى وبقوته الخطابية النادرة المثال وبمخاطبته شعور الشبيبة وباستنهاضه همتها وبأناشيده عن الوطن ومحبته وارتقائه ، بذلك كله استطاع الزعيم الشاب أن ينهض بأعباء دعوته مؤيداً من الخديو عباس وأصدقائه بادئ الأمر ، شاعراً بقوته بعد ذلك ، مملياً إرادته على الذين كانوا يملون من قبل عليه إرادتهم ، مستأثراً بكل أمر وبكل رأى ، مطاعاً من كل أنصاره وأتباعه الذين لم يتسام واحد منهم ليتطلع إلى مثل مكانته ، متقدما دائماً إلى الأمام يتبعه شباب الأمة كلها ، رافعاً بذلك علم النهضة مردداً نشيد الأمل فى المجد والعظمة بصوت تهتز له الأفئدة وتخفق له الجوانح فلا تعرف الخطر ولا تأبه له ولا تشعر باقترابه بل بوقوعه .

بإزاء هذه الحركة الوطنية المتدفقة حرارة وإيماناً لم يكن لإنجلترا إلا أن تضاعف المجهود لبلوغ غاياتها السياسية فى مصر . ولم يكن لورد كرومر ممثلها فى مصر يومئذ بالرجل الذى يستهان به ، فحارب هذه الحركة وطعنها من جانبين . اتهمها بالتعصب الإسلامى ليستثير أوربا المسيحية . واتهمها بالعداوة للأجانب ليؤلب الدول فى صف إنجلترا . وما أيسر ما تصدق الأذن الأوربية كلمة التعصب الإسلامى وعداوة المصريين المسلمين للأجانب المسيحيين . لذلك أنفق مصطفى كامل كثيراً من جهوده فى مصر وفى أوربا لنفى التهمتين ، وكان من ذلك أن أنشأ جريدتين فى مصر إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية . على أن إنجلترا لم تقف من مجهوداتها عند هذا الحد . بل واصلت المسعى السياسى حتى عقدت الاتفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ وبه حصلت على إطلاق يدها فى مصر على ألا تغير نظام مصر السياسى . وأقرت ألمانيا والنمسا هذا الاتفاق ، فأقرت الدول الثلاث

بذلك معاهدة السودان التى عقدت فى سنة ١٨٩٩ . وبهذا الاتفاق الودى انهار ركن من أهم أركان سياسة مصطفى كامل ، بل انهار مجهوده منذ سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال فى عواصم أوربا لاستفزاز دولها كى يقتضوا إنجلترا تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل .

والواقع أن هذا الحادث صدم المصريين يومئذ صدمة قوية . فرنسا هذه التى طالما علقت مصر عليها الآمال ، فرنسا التى رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراها ، فرنسا محررة الأمم ومعلنة حقوق الإنسان والمنادية بالحرية والإخاء والمساواة ، هى التى تمضى الاتفاق الودى تؤيد به سياسة الاستعمار فتترك إنجلترا تطلق يدها فى مصر مقابل ترك إنجلترا إياها تطلق يدها فى مراكش ! ! يا لخيبة الأمل ! وأين إذن محل الرجاء ؟ !

لكن «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» ! فلنجاهد . ! واستمر مصطفى كامل فى جهاده ، وما يزال له فى دولة الخلافة بعض الرجاء وما تزال دعوة الشعوب الإسلامية للالتفاف حول دولة الخلافة كوسيلة لتحررها محور دعوته . فلما كانت أوائل سنة ١٩٠٦ حدث ما زعزع من رجاء مصر فى الدولة العلية هى الأخرى . ذلك أن أعادت تركيا الخلاف الذى أحدثته حين تبوأ عباس عرش أبيه فى سنة ١٨٩٢ بأن أرادت أن تخرج شبه جزيرة سينا من الأراضى المصرية ، فوقفت إنجلترا وأصرت على أن تكون حدود مصر هى المبينة فى الفرمان الذى أصدره السلطان لإسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٣ . وقد قبلت تركيا ذلك فى تلغراف أرسله الباب العالى فى ٨ يناير سنة ١٨٩٥ . لكنها أرادت أن تفسر هذا التلغراف فى سنة ١٩٠٦ تفسيراً خاصاً فتجعل حدود مصر تنحدر من رفح إلى السويس فإلى العقبة . فوقفت إنجلترا مرة أخرى . ولما احتلت القوة التركية طابة ، وهى قرية على مقربة من العقبة داخلة ضمن الحدود المصرية ، خاطب السير إدوارد

جراى وزير الخارجية البريطانية إذ ذاك سفير تركيا فى لندرة بما معناه : إن قوات الإمبراطورية على استعداد لتأييد مركز إنجلترا فى مصر . وقد استمرت المشادة فى هذا الموضوع بين تركية وإنجلترا زمناً وقف فى أثنائه مصطفى كامل بجانب تركيا يدافع عن مطالب دولة الخلافة جهد طاقته . على أن تركيا انتهت آخر الأمر بالتسليم بمطالب إنجلترا ، فكانت هزيمة مسقطة لكل أمل فى معونة تركيا . وكذلك تداعى الركن الثانى من أركان الدعوة التى كان مصطفى كامل قائماً بها .

ولقد كان من شأن تداعى هذه الأركان واحداً بعد واحد أن يكشف عما تستره هذه السياسة من الخيال . على أن حادثاً جديداً وقف فيه مصطفى كامل موقف المدافع عن العدالة والإنسانية بمعناها الصحيح ستر ما انكشف من فساد الاعتماد على أوربا وعلى الباب العالى . ذلك هو حادث دنشواى . فقد خرج جماعة من الضباط والعساكر الإنجليز من القاهرة قاصدين الإسكندرية فمروا فى طريقهم بقرية دنشواى فنزلوا لصيد الحمام بأجرانها . واعترضهم الأهالى وحدث تصادم انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وبإصابة بعض الضباط الإنجليز إصابة فر من جرائها أحدهم الكابتن بول فأصابته ضربة شمس مات متأثراً بها . وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصوصة التى شكلت بديكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر فى هذه القضية وحكمت على أربعة من الأهالى بالإعدام وثمانية بالجلد وآخرين بالأشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للإنسانية بها منذ عصورها المظلمة . فقد نصبت المشانق التى أرسلت إلى قرية دنشواى قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الأهالى مباشرة ونصبت إلى جانبها آلات الجلد . وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن . فكان كل محكوم عليه بالإعدام يعلق فى المشنقة ويبقى معلقاً أمام أنظار أهله وأبنائه إلى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد . وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية ألسن معقود طرف كل لسان منها

بقطعة من الرصاص . ومن حول المشانق والمجالد وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة فى المشانق ، ومستشار الداخلية الإنجليزى واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذى ابدعته إنجلترا فى مطلع القرن العشرين . ما أشدها وحشية وما أتعسها حضارة ! هنا يجب أن يرتفع الصوت عالياً دفاعاً عن الرحمة وعن الإنسانية وعن العدالة وعن كل المعانى التى جاهدت الإنسانية أجيالا وقروناً لتثبيتها فى النفوس . وأى صوت أرفع من صوت مصطفى كامل ، وأى أسلوب وجدانى كأسلوبه ! وهذه الدعاية السياسية التى فشلت بإزاء قوة إنجلترا فى أوربا وفى مصر لابد أن تنجح إذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس . وقد نجح مصطفى كامل فى هذا أكبر نجاح . والحق أنه لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاعة تعدل فظاعة تنفيذ حكم دنشواى ، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارته هذه الحادثة . ولقد صدق مصطفى كامل إذ قال : إن عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيى شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث . لذلك ظل يكتب ويخطب فى مصر وفى إنجلترا بياناً لبشاعة هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كرومر إلى اعتزال منصبه فى مصر مع اعتراف الكل له بأنه من أقدر الساسة البريطانيين وأعظمهم أثراً فى حياة الإمبراطورية .

على أن المصريين كانوا قد رأوا فشل السياسة الأولى التى جروا عليها : سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوربا ثم على الباب العالى ، وقدر جماعة منهم أن لابد من الأخذ بسياسة أخرى هى إعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الإيمان بنفسها فى نفسها لا لمجرد كراهية الإنجليز ولا حباً فى الباب العالى ومقام الخلافة السامى ، ولكن حباً فى الاستقلال والحرية لذاتهما . وكان لطفى بك السيد وزير المعارف السابق لسان الذين فكروا هذا التفكير والذين اعتزموا لبث دعوتهم

إصدار جريدة «الجريدة» . على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوعه ليرى فى ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه . لذلك هاجم «الجريدة» قبل صدورها وهو من أعرف الناس بصديقه لطفى السيد وبالذين كانوا على رأيه . ولعل هذا الخلق فى الزعيم الشاب هو الذى دعاه أن يبعث من أوربا على أثر إعلان المرحومين سعد زغلول باشا وقاسم بك أمين تشكيل لجنة لتأسيس جامعة مصرية أهلية محتجاً على عملهم بأنه سبقهم إلى الفكرة فيجب أن يكون تنفيذها تحت رعايته .

وخلف سير الدون غورست لورد كرومر كمعتمد لإنجلترا فى مصر ، فجرى مع الخديو على سياسة غير سياسة المشادة والنزاع التى كانت سائدة بين عابدين وقصر الدوبارة إلى ذلك التاريخ ، وطمع الخديو فى أن ينال من وراء هذا الاتفاق مع معتمد بريطانيا سلطة لعل السعى لها هو الذى دفع به لاصطفائه من اصطفى من الشبان ليعملوا باسم مصر كى يخليها الإنجليز فتبقى السلطة فيها محصورة فى يد حفيد إسماعيل . وغير ذلك من الخديو على مصطفى كامل . وذلك شأن الملوك . يصطفون من يصطفون ما دام لهم فى ذلك مأرب خاص . فإذا انقضى المأرب انصرفوا عنه وأنكروه . ثم إن مصطفى رأى دعوة لطفى السيد إلى الاستقلال التام أبعد مدى من الدعوة إلى جلاء إنجلترا وبقاء مصر تابعة لتركيا . لذلك قال فى الخطبة البديعة التى ألف بها الحزب الوطنى وألقاها فى تياترو زيزينيا بالإسكندرية ما نصه : «فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها . وأننا إذا خطبنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون» . ومع هذه الكلمة الصريحة فى المطالبة بالاستقلال والحرص عليه كانت الفقرة الأولى من برنامج الحزب الوطنى هى استقلال مصر الداخلى وفاقاً لمعاهدة لندرة فى سنة ١٨٤٠ . ولعل ذلك إنما نص عليه تفادياً من معارضة القانون والتعرض لتهمة التآمر

لقلب النظام الذى كان موجوداً .

ولم يوهن فتور العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ولا الخلاف بينه وبين الأحزاب المصرية الأخرى من همته العالية فى الدفاع عن منكوبى دنشواى . وقد كلل مسعاه بالنجاح فصدر الأمر العالى بالعفو عنهم فى عيد جلوس الخديو الذى تلا هذه الحوادث أى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨

* * *

بعد ذلك بشهر واحد كان مصطفى كامل على سرير المرض ينتظر الموت فى ثبات وصبر ، والأمة من حوله يخفق قلبها فرقاً على هذا الابن البار الذى أذكى ضرام الوطنية فى شبيبتها . فلما كان يوم ١٠ فبراير أطبق الموت جفنى الزعيم الشاب وما يزال فى مقتبل عمره ، ولما يبلغ الخامسة والثلاثين . لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التى جاهد فيها مصطفى (من ١٨٩٥ – ١٩٠٨) هى فى الواقع حياة طويلة . لأنها حياة جليلة بنشاطها وبأعمالها ، جليلة بإيمانها وسعيها . وفى عصر ذلك اليوم بينا أنا جالس مع زميل لى من طلبة الحقوق مر بنا من نعى الزعيم لنا . وفى اليوم التالى خفق قلب مصر من أقصاها إلى أقصاها حزناً عليه وجزعاً ألا يخلفه من يكون مثله ذكاء ومقدرة وقوة إيمان .

وودع مصطفى هذا العالم وقد عمل لوطنه فى عشر سنوات ما لم يعمله غيره فى عشرات السنين ، بل ما لم تعمله أجيال بأسرها . لذلك بقيت ذكراه تحييها مصر كل عام . ومن حيث ذكراهم فأولئك لهم الخلد فى ضمير الدهر وكفى بذلك جزاء موفوراً .

قاسم بك أمين

كلما ذكر اسم قاسم أمين* ذكر معه تحرير المرأة فى مصر. فأول صيحة ارتفعت هذا التحرير هى صيحة قاسم فى كتابيه: «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة». وعلى أثر هذه الصيحة قام جدل عظيم فى الموضوع مانزال حواشيه باقية إلى يومنا هذا. مع ذلك، ومع أن قاسما لم يمت إلا من عشرين سنة، فلو أنه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الإجبارى للبنين والبنات، وهذه النهضة النسوية العظيمة فى مختلف جوانب الحياة، وهذه الحرية النسبية التى تتمتع بها المرأة، وهذا الإصلاح فى التشريع للأحوال الشخصية ما تم منه وما يوشك أن يتم، إذن لأخذته الدهشة، ثم لانقلبت دهشته اغتباطاً أى اغتباط بهذه الآثار، ثم لعقب سروره أسف على ما اضطر إليه فى كتبه من محافظة ألزمه إياها روح عصره الجامد. ثم لترك

* اقرأ من قاسم أمين أيضاً فى «فى أوقات الفراغ» طبعة ١٩٦٨ ص ٩١ - ١٤٣.

ميدان المرأة وتحريرها يسير فى طريقه الطبيعى ، ولفكر فى ميدان آخر من ميادين الإصلاح الاجتماعى الخطير الذى تحتاج مصر اليوم إليه أشد الحاجة . ولعل الأدب القومى وخلقه وتوطيده والارتفاع به إلى سماوات الإنتاج الذاتى الخصيب يكون بعض الميادين التى يصرف إليها بطل الجامعة المصرية منذ تأسيسها وأحد واضعى أسس هذا الأدب القومى فى كتبه الثلاثة كل ما يكون لديه بعد بعثه من نشاط وجهد .

ذلك بأن روح قاسم كانت روح أديب ، كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التى لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح إلى السكون ، وكانت الروح المشوقة التى لا تعرف الانزواء فى كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحياً وإلهاماً أكثر مما تؤدى إليها المباحث الجافة منطقاً وجدلا . وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه إلى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع . وذلك لا يؤتاه إلا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم ! وكما يعبر الموسيقى بالنغم والمصور بالنقش والمثال بالنحت والشاعر بالوزن ، كذلك الكاتب الأديب يجد فى وصف ما فى الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به وما يدعو غيره إليه . وحياة قاسم كانت كلها متجهة إلى هذه الدعوة . وكانت متجهة إليها بقوة آخذة بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الإيمان بها إيماناً صادقاً .

ولد قاسم مصرياً يجرى فى عروقه دم كردى ، أورثه إياه جده الأمير الكردى . وولد فى أسرة متوسطة اليسار لم يفسدها ترف الإكثار ولم تجن عليها آثار الحاجة . وتربى منذ نشأته تربية أمثاله ، ثم سافر إلى فرنسا حيث درس الحقوق وعاد فى سنة

١٨٨٥ . وليس فى ظروف صباه شيء غير عادى إلا أنه كان جم الحظ من الحياء مما ألزمه العكوف على نفسه وعلى درسه . وليس فى حياته بعد ذلك شيء من المجازفات التى تجذب لأصحابها أنظار الجماهير ، بل ظل منذ أتم دراسته إلى أن عاجلته منيته سنة ١٩٠٨ وهو فى ريعان قوته قاضياً ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف . لكنه كان مع حياته الجم عيوفاً يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحريته ، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفاً . ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية حرية الرأى . وتلك ظاهرة كثيراً ما تلقاها فى ذوى الحياء . فهم مع احترامهم لغيرهم ولحريته ومع مبالغتهم فى هذا الاحترام إلى حد يهون معه عليهم أحيانا أن يتحملوا سوء استعمال الغير لهذه الحرية إلى حد يضايقهم ، تراهم إذا أراد مريد حبس رأيهم أو محاربته توترت كل أعصابهم وانتفضوا انتفاضة الليث تبدو أنيابه ومخالبه ووقفوا مستميتين يذودون عن رأيهم ويستهينون فى سبيل ذلك بالمال والجاه وبالحرية والحياة . وذلك سر نجاحهم دائماً . على أنهم لذلك لا يصدرون عن الرأى إلا بعد تمحيصه وتقليبه على مختلف وجوهه والاقتناع به اقتناعاً يحل منهم مكان الإيمان ، وهذا ما عبر عنه قاسم فى مقدمة كتابه « تحرير المرأة » حين قال « هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى إذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى إلى مزاياها وتنبهنى بالحاجة إليها ، فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر » .

وهذا الخلق فيه هو الذى جعله منذ عودته من دراسة الحقوق بفرنسا إلى خاتمة حياته قاضياً ممتازاً . فهو لم يقض يوماً لينال حظوة عند أحد أو ليصفق الجمهور له . ولم يكن من بين القضاة الذين قال عنهم : « أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل . » ولم يتقيد فى قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر

القضاة حجة لا محيد عنها . بل لم يتقيد بنص القانون إذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه . وهذا هو ما جعله ميالا للرأفة فى قضائه نافراً أشد النفور من حكم الإعدام . فقد كان يرى : «أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لإصلاح الذنب» وأن : «معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر» وأن : «التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله» وأن : «الخطيئة هى الشىء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه والحال الطبيعية الملازمة لغريزة الإنسان» . فإذا كانت الجماعة لم توفق بعد لإدراك هذه الأفكار وكانت قوانينها التى وُكِّل إليه تطبيقها كقاض ما تزال تجرى على سنة القصاص والانتقام وما تزال دموية متوحشة ، فلا أقل من أن يتحاشى الإعدام وهو أشد ما فيها وحشية ، وهو العقوبة الوحيدة التى لا سبيل لعلاجها إذا ظهر خطأ القاضى أو ثابت الجماعة إلى رشدها ورأت تعديل أساس عقوباتها بجعل العقوبة للإصلاح لا للقصاص أو أخذت بمذهب العفو والتسامح .

وكذلك كان رأيه فى قضائه المدنى : لم يكن يتقيد بالإجراءات إذا رأى العدالة توشك أن تهدر لأن واحداً من هذه الإجراءات لم يراع المراعاة الواجبة . ثم كان أشد القضاة ميلا لمصالحة المتخاصمين ولإحلال التسامح محل النضال والحسنى مكان الشر والسوء . وهو فى هذا ككثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديداً فى العدالة وفى التشريع والذين خطوا بنصوص القوانين إلى معان تتفق مع الرقى الإنسانى الذى يصبون إليه ويودون لو يتحقق . وأنت إذ تقرأ أحكامه تشعر فيها بهذه المعانى التى ربما خيل إلى رجال القضاء بالمهنة أنها إلى الأدب والخيال أقرب منها إلى النصوص المقدسة ، والتى كانت مع ذلك وسيلة التطور التشريعى فى سبيل بلوغ العدالة منازل الكمال .

وهذه الآراء المتقدمة التى اعتنقها قاسم فى نظره إلى الإنسان وفى تحليله نفسيته ،

وهذه الأعصاب الثائرة التى تهتز لكل ما فى الحياة من جمال وترجو لو يستمتع الناس به ، وتربية قاسم فى وسط فرنسا الحر الذى كان متأثراً بالثورة الكبرى وبثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٠ ، ذلك كله هو الذى دفعه ليعلن رأيه فى تحرير المرأة مع علمه بما يثيره إعلان هذا الرأى عليه من حملات شعواء . فقد شعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبان الذين درسوا فى أوربا من ألم لما يرونه حين مقارنة الوسط الذى كانوا فيه بالوسط الذى عادوا إليه . بل لعل هذه الحال على حد تعبير الأستاذ لطفى السيد : « اعترته على نوع أشد مناسب لمقدار أطماعه الواسعة ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة . وربما استحالت هذه الحال بمساعدة ما به من الوقار الجنسى إلى ملكة يتم عنها سكونه وإطراقه ويفسرها كثير من كلماته إلى حد يجعل المرء يراه متطيراً أكثر منه متفائلا » . وكثيرون ممن تعتريهم هذه الحال يثورون ثم ما يلبثون أن يهدءوا إذ يرون أنفسهم عاجزين عن أن يهزوا الوسط الذى هم فيه أو يبدعوا فيه جديداً . ولعل قاسماً حدثته نفسه غير مرة بالسكوت والاكتفاء بجاهه العريض ومنصبه العظيم . ولعله كان يصف نفسه أيضاً حين كان يقول عن الشيخ محمد عبده : « كم من مرة سمعته يؤكد أنه صمم على ألا يتداخل فى شىء من هذا القبيل ، ثم رأيته فى الغد منغمساً فيه أكثر مما كان . ذلك لأنه ، بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم ، كان عنده أمل لا يزعزعه شىء فى إصلاح أمته ، كان عنده اعتقاد متين بأن البذرة الطيبة متى ألقيت فى أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها . لهذا كان يلقى بملء يديه كل ما جمعه فى حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة ، كأنه كان يشعر أن حياته ليست طويلة فكان يعجل ببذل جميع ما كان عنده[1] » وكذلك لم يستطع هو أن يسمع لداعى الطمأنينة إلى منصبه وجاهه بعدما

(١) تأبين الشيخ محمد عبده .

رأى أن لا مناص من إبراز دعوته من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر.

وفى ظننا أن الدعوة إلى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم الاجتماعى ، وإنما كانت حلقة منه هى أعسر حلقاته وأعقدها . ذلك بأنه لم يقصر عليها كل جهد حياته ، بل اشتغل منذ سنة ١٩٠٦ بالدعوة لإنشاء الجامعة مع صديقه سعد زغلول وشغل بهذه الجامعة وبتوطيد أركانها إلى أن وافته منيته بعد ما أعد كل العدة لافتتاحها وقبيل هذا الافتتاح بأشهر معدودة . وتدل كلماته على أن برنامجه كان أوسع من مجرد تأسيس الجامعة وتركها تسير حسب ما توجهها الرياح ، وعلى أنه كان يريد أن يجعل من الجامعة خطوة لبرنامج أوسع نطاقاً يتناول ثورة فى اللغة والأدب كالثورة التى أحدثها كتاباه فى تعليم المرأة وفى رفع الحجاب .

ومن نافلة القول تكرار الكلام عن برنامجه فى تحرير المرأة . فقد تناول الكتّاب هذا البرنامج بالشرح والتحليل منذ أكثر من عشرين سنة . وكل ما يمكن لقارئ كتابيه « تحرير المرأة » و« المرأة الجديدة » أن يقف عنده اليوم فى شأن برنامجه ما اضطر إليه من تحفظ يجعل أهل هذا الجيل يرون صيحة قاسم التى كانت يوم ظهرت قوية مرعبة أن هزت أركان عادات أهل عصره لا تزيد اليوم على أنها صورة للآراء والعادات المتداولة ، ونسخة من آلاف ما يكتب من نوعها وما يزيد أكثر الأحيان فى تقدمها وسبقها .

ومعنى هذا أن دعوة قاسم آتت كل ثمرها فصارت بعض عقائد الناس وآرائهم . وإذا كان شىء مما دعا إليه كتنظيم تعدد الأزواج وكجعل الطلاق بإذن القاضى ما يزال موضع النظر ، فإن الرجاء منعقد بتمامه عما قريب ، كما أنه لم يبق من يعترضه إلا الجامدون والذين فى قلوبهم مرض . على أن كتابىّ « تحرير المرأة » و« المرأة الجديدة » ليسا مقصورين على الدعوة إلى تعليم المرأة وإزالة الحجاب ، بل فيهما

مذهب جديد فى التفكير والكتابة لم يكن معروفاً من قبل قاسم ولم يسبقه إليه أحد ، فيها شيء من «الرومانتسم» الغربى ومن تحليل الطبيعة الإنسانية فى أرق عواطفها وأدق وجداناتها . فقد كان قاسم ينظر إلى عاطفة الحب نظرة عبادة وتقديس ، وكان يقول : «إن العارف يعتبر العثور على الحب الشريف أكبر السعادات فى هذه الدنيا . وإذا كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها»[1] وكان يراه غذاء روحيًّا لا غنى لنفس عنه فى جميع أدوار حياته . وعنده أن : «كل عشق شريف . فإن كان بين شريفين زاد فى قيمتها ورفع من قدرهما . وإن كان بين وضيعين أكسبهما شرفاً وقتياً حتى إذا زال العشق سقطت قيمتها وانحطت مرتبتهما ورجعا إلى أصلها» . ورجل ذلك نظره للحياة أدنى إلى تغليب حكم العاطفة وإلى اعتبارها الهادى والمرشد الأول فى الحياة . وإنك إذ تقرأ فى كتابيه ما كان صادراً عنه هو غير متأثر بجدله مع غيره أو ببحوثه الفقهية التى التجأ إليها لتبرير مذهبه بإزاء الشريعة الإسلامية ، إذ ذاك ترى العاطفة الحية الحساسة ، عاطفة المحبة والرحمة والتسامح والسلام هى السائدة فى كل نواحى الكتاب ، وهى مقدمة كل أسبابه ونتائجه . وهل الحياة إلا محبة ورحمة وتسامح وسلام ؟ وهل فى الحياة أجمل من المحبة والرحمة والتسامح والسلام ؟ وقاسم يريد بالناس أن يستمتعوا بجمال الحياة وبالحياة كلها استمتاعاً كاملا . وهو لا يريد هذا على أنه مجرد دعوة لمثل أسمى قد تصل الإنسانية إليه وقد لا تصل ، ولكنه يريده حقيقة تتم . وهو يريده لنفسه بمقدار ما يريده للناس ، وأكثر مما يريده للناس . وأنت ترى هذا فى كلماته التى لم تنشر للناس إلا بعد موته والتى كان يرصد فيها أفكاره الخاصة لنفسه . ترى فى هذه الكلمات مبلغ إيمانه بالجمال وبالحب وبالفن الجميل . وترى مبلغ ألمه لعدم تقدير بنى وطنه بدائع الطبيعة وتصوير رجال الفن لهذه البدائع . قال : «وصلنا قصر اللوفر

(١) تحرير المرأة .

وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم . فبعد أن تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت وها أنا ذا منتظركم هنا . وقال الثانى : أتبعكما لأنى أحب المشى وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى ، وسار معنا شاخصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح : «هذا ألطف ما فى هذه الدار» ، ووصلنا إلى تمثال إلهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع فسألت دليلنا ماذا تساوى هذه الصورة إذا بيعت ؟ فقال إنها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الإنسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمناً لها إذ لا حد لقيمتها» .

* * *

ومثال الجمال عند قاسم مجسم فى المرأة . وإذا كانت الموسيقى وكان التصوير وكان التمثيل وكان كل مظهر من مظاهر الفنون الجميلة محبباً إليه فإن مصدر الوحى الذى تصدر عنه هذه الآثار جميعاً هو المرأة ، هى التى تجعل للطبيعة وما فيها جمالا لأن عيونها تقع عليها ، وهى تلهم الرجل هذا الجمال لأنها تحب الزهر وعطره والنسيم وأرجه والقمرى وشدوه ولأنها تحب كل جميل . وقد لا ترى ذلك واضحاً صريحاً فى كتب قاسم ، ولكنك تراه واضحاً فى عباراته الملتهبة عن العشق والحب . وفيما قدمنا من عباراته فى تحرير المرأة وفى الكلمات ما ينهض دليلا على رأينا . وأكثر منه فى الدلالة قوله : «كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل» وقوله : «الحب إحساس عميق يستولى على النفس كلها ويجعلها محتاجة إلى الاختلاط بنفس أخرى احتياجاً ضرورياً كاحتياج العليل إلى الشمس والغريق إلى الهواء ، نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا . . . نظرة فى عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل أنه ماش فى

طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة وطائر فى المرتفعات العالية ، فوق فوق قريب السماء» وهو ، وذلك إيمانه الصحيح ، قد رأى أن المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل هذه المعانى السامية وأن تفيض على الفنان بالوحى وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب إليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة . لذلك دعا دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة للناس جميعاً .

* * *

لكن هذا الوحى والإلهام لا يكون إلا إذا استعد الرجال لتلقيه . وإذا كان لدعوة قاسم أن تنجح فى ميدان تحرير المرأة وأن تجعل من المصرية مثلما كانت أخت رينان أو زوجة جون ستوارت ميل أو شبيهاتها من النساء اللواتى أوحين إلى النوابغ ما غير وجه التاريخ ، فلابد من إعداد الرجال لتلقى هذا الإلهام السامى ولإبرازه فيما يجب أن يبرز فيه من قوة . وذلك لم يكن ممكناً والتعليم العالى ، كما كان يومئذ ، مقصور على أن يعد موظفين للحكومة وللأعمال الحرة ممن لا يرون العلم إلا وسيلة للكسب «ويعملون على مبدأ – اكسب كثيراً واتعب قليلا – وليس فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذى تحتل شهوة العمل كل قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته» . أمثال هؤلاء لا يوحى إليهم جمال العالم فكرة جديدة ولا يرتجون من الحياة إلا اعتزازاً بمنصب أو بمال طائل يحصلونه . وهؤلاء لا يمكن أن تنهض أمة بهم لترقى إلى سبيل الكمال . فأما الفئة التى : «تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول ، الفئة التى يكون مبدؤها التعلم للتعلم» والتى تحس جمال الحياة فى مختلف مظاهره ، الفئة التى ترى فى المرأة الجميلة المهذبة معواناً على النهوض بالجماعة – هذه الفئة لا تكون إلا حين توجد الجامعة وحين يوجد التعليم الجامعى . وهذه الفكرة هى الأمامس الذى دعا قاسماً للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومع أركان نهضة مصر

ليؤسسوا الجامعة المصرية التى استظلت لجنتها برياسة سعد باشا زغلول حتى ترك منصبه كمستشار فى الاستئناف وعين وزيراً للمعارف فحل محله قاسم أمين فى رياسة اللجنة إلى أن عاجلته المنية .

وقد ظل قاسم عاملاً مع أصحابه مجداً يستنهض الهمم ويجمع الأموال ويهيئ كل أسباب نجاح الجامعة . وقد بين فكرته عنها فى خطاب القاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فداناً للجامعة قال فيه : «إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقاتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بنا أن نقتدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل . .

«نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول ، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم . نود أن نرى من أبناء مصر ، كما نرى فى البلاد الأخرى ، عالماً يحيط بكل العلم الإنسانى واختصاصياً أتقن فرعاً مخصوصاً من العلم ووقف نفسه على الإلمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة ، وكاتباً ذاع صيته فى العالم ، وعالماً يرجع إليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمدبرون لحركة تقدمها . فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون .

«إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى إزالته . وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج فى جميع أمورنا ، حتى فى

الأشياء التى يجب بطبيعتها أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب .

« إن الارتقاء فى الإنسان تابع على الخصوص لإحساسه ، وإن أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيما فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة . أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فى مُصَادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحى إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو عالماً حكيما أو ولياً طاهراً أو نبياً كريماً .

« ولى أمل عظيم أن يكون إنشاء الجامعة المصرية سبباً فى ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال » .

كان أول أمل لقاسم من إنشاء الجامعة إذن هو الأمل العلمى البحت . هو تكوين فئة للبحث وراء الحقيقة شوقاً إليها وحرصاً على كشف ما يحيط بهذا العالم من الأسرار . وهذه الحقيقة لا يصل إليها أولئك المشغولون بأسباب الرزق العاكفون على السعى لها والدأب فى سبيلها . وإنما تصل إليها بيئة علمية يتصل الطالب فيها بالأستاذ اتصال دراسة واتصال بحث . اتصال تعليم واتصال تضامن فى زيادة ثروة الإنسانية العلمية . هذه الثروة النورانية التى تضىء ما حولها لتهتك حجب الجهل وما يجره وراءه من جمود وتعصب ونفاق ، والتى تهدى الإنسانية سبيل السعادة بما تكشف لها من جمال الوجود . ولعل أكبر رجاء قاسم كان أن يتناول هذا البحث آداب مصر بغية الوصول إلى تركيز أدب قومى صالح يجدد الأدب العربى الذى كان متداولا إلى عصره . وقد كانت لقاسم فى تجديد اللغة والأدب آراء لا تقل تقدما عن آرائه فى مسألة المرأة وتحريرها . وكان يرى : « أن اللغة العربية مرت عليها القرون

الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام بينا أخذت اللغات الأوربية تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والإيضاح والدقة والحركة والرشاقة ، وصارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث » . وفى كلماته كثير عما كان يراه من أوجه النقص فى اللغة ووسائل علاج هذا النقص قال : « لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب إصلاح اللغة العربية . . لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل . بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الإفرنجية واللغة التركية أيضاً ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال إلخ . بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هى » .

ولم يكن جزعه على الأدب بأقل من نفوره من جمود اللغة . فكم نعى على الكتاب والشعراء اقتصارهم على « تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن » . وكم أسف على الفتور العقلى الذى يجعلك : « إذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيراً جديداً أو أسلوباً مبتدعاً ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه » وكم استهجن الأساليب التى تقتصر على المحسنات اللفظية ودعا إلى جدة تخرج بالكاتبين من ذلك النوع البالى الذى لا يعرف البحث والتحليل والتسمع على النفس والمشاعر ووصف بدائع الطبيعة مكتفياً بالعبارات المحفوظة التى توارثوها عن كتّاب العرب أيام مجدهم . وإنك لتجد فيما خلف قاسم صورة من هذا الأدب الجديد الذى يدعو هو إليه والذى غزا ميدان التحرير والكتابة فأصبح أدب هذا

العصر الحاضر . ولئن كنا ما نزال نرجو للأساليب الجديدة ثروة وقوة فإن فضلا كبيراً يرجع لقاسم فى هذه الجدة التى دعا إليها والتى كان يرجو أن تبدع فيها الجامعة التى جاهد فى إنشائها والتى قامت بعد موته قوة تقربها من المثل الأعلى الذى يرجوه .

واختطف الموت فجأة قاسما وما يزال فى ربيع قوته . مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قدم فيها طالبات رومانيات فى نادى المدارس العليا . مات وهو فى ميدان هذا الجهاد الشاق الذى خاض غماره وحمل أعباءه بقوة وعزيمة لم يتطرق إليهما كلال . فقد وقف الرأى العام فى وجهه على أثر نشر كتاب تحرير المرأة . ولم يكن هذا الرأى العام مقصوراً على السواد ولا على الجامدين . بل ساير هؤلاء كثيرون ممن يزعمون أنهم يفهمون الرأى واحترامه والحرية وقداستها ، بل ممن كانوا مقتنعين بصواب رأى قاسم . وبلغ الأمر أن حرم قصر عابدين عليه . ولم يثبطه شىء من هذا ولم يبال بذم الناس « بل وجد فيه نوعاً من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطاً لقواه مغرياً إياه بالاستمرار والثبات » . ورد على خصومه بكتاب « المرأة الجديدة » ثم قام بالمجهود العظيم الذى قام به فى إنشاء الجامعة . وكان فى إبان ذلك كله ساكن النفس مطمئن الضمير محباً للحياة وجمالها غير بخيل على نفسه بحظ من ذلك يناله فى رفق ما كان بعيداً عن مصر ، فإذا عاد إليها اقتصر على أصدقائه القليلين الذين كانوا « يخففون عليه حمل الحياة ويرغبونه فى بقائها » .

مات فجأة فى ليل ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨ فأثار خبر وفاته فى نفوس الناس جميعاً ، أصدقائه وخصومه ، رنة حزن وأسى ، واجتمع لتشييع رفاته كل ذوى الرأى فى مصر . وكانت جنازته مظهراً صامتاً لإجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله . وغادر هذا العالم تاركاً وراءه ذكراً باقياً هو ذكر الصدق والإخلاص لبلاده لم يبتغ عليهما فى حياته أجراً من جاه أو نشب . فكان أجره عليهما الخلود بعد موته فى ضمير الأجيال المتعاقبة . ذلك بأنه رفع لواء الحرية الصحيحة والعدل فى أسمى

معانيه ، وبعث إلى الروح المصرية حياة جديدة تكفل لها بلوغ ما ترجوه بين جماعة الأمم المتحضرة .

وفى يقيننا أن مجهود قاسم من أبقى المجهودات على الحياة ، وأن الصحائف المعدودة التى كتبها ستظل أبداً موضع إجلال العصور واحترامها .

obeikandl.com

obeikandl.com

إسماعيل باشا صبرى

لم تمض على وفاة المغفور له إسماعيل صبرى باشا غير سنوات قليلة ومع ذلك فقد بدأ الناس لا يذكرون عنه إلا أنه كان شاعراً مجيداً فأما أنه كان وكيلاً للحقانية فى آخر أيامه ، وأنه درج قبل ذلك فى وظائف الحكومة المختلفة حتى بلغ هذا المنصص ، فهذا ما يسحب النسيان عليه ذيله رويداً رويداً ، وهذا ما يعتبر الجانب القليل الخطر من حياته . ولا عجب فى ذلك . فلقد كان الشعر هو الجانب المنير من روح إسماعيل صبرى والذى يجعله أحد رجال التاريخ الحديث . والناس لا يذكرون من الكبراء إلا مواضع عظمتهم الحقة ، المواضع التى تتصل فيها نفوسهم بنفس الإنسانية كلها اتصالاً تتأثر به النفس الإنسانية تأثراً باقياً على الأجيال فى تعاقبها . فأما هذا العمل اليومى الذى يقوم به كل منا ويستطيع غيره أن يحل محله فيه ، فأما هذا الجانب من الحياة الذى يتكرر فيه الفرد من غير أن تظهر له

شخصية خاصة ممتازة ، فأما النيابة والقضاء ووكالة محكمة الاستئناف ومنصب النائب العمومى ووكالة الحقانية مما تقلب فيه إسماعيل صبرى ، فتلك المراكز على خطرها وجلالها وما تخلعه على صاحبها فى حياته من جاه ومقام عظيم ، إنما يتصل صاحبها بالجيل الذى يعيش فيه إلا أن يمتاز فى أعمال هذه المناصب امتيازاً يترك أثراً تتناقله الأجيال . ولم يترك إسماعيل صبرى فى هذه الناحية من حياته ذلك الأثر . لذلك كان له من جاهها مدى حياته ما يكون لغيره . فأما ما بقى له فذلك الضياء النفسانى الذى يتجلى فى شعره القليل ، والذى يعتبر على قلته آية فى الجمال تهتز لها نفوس كل الأجيال ، والذى يبقى من أجله اسم إسماعيل صبرى على الزمان ، لأنه — على حد قول الأستاذ على الجارم فى مرثيته إياه :

لم يمت من يزول من عالم الحس وتأبى آثاره أن يزولا

* * *

ولد المرحوم إسماعيل صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ ودخل مدرسة المبتديان التجهيزية فمدرسة الإدارة . وفى سنة ١٨٧٣ التحق بالإرسالية المصرية لفرنسا فنال إجازة الحقوق فى سنة ١٨٧٨ . وهذه الإجازة هى التى فتحت أمامه أبواب السلك القضائى من مساعد نيابة لدى المحاكم المختلطة إلى وكيل وزارة الحقانية . على أن الجانب النفسى الأقوى منه لم يكن الجانب التشريعى أو الجانب القضائى ، بل كان جانب تجاوب الأوزان والأنغام والشعر . وكثيراً ما رأيت رجالاً يكونون دون غيرهم من أهل حرفهم فى الكفاية والمقدرة ، ولكنهم يمتازون بجانب آخر لهم فيه نبوغ . هؤلاء يحجب فيهم جانب النبوغ الجانب الآخر ويجعله يبدو ضعيفاً . بل كثيراً ما يجنى جانب النبوغ على الجانب العملى للحياة ، لما يكره النبوغ عليه من وهبته الطبيعة إياه من مجهود مستمر وحياة خاصة ، فإذا الجانب العملى يكاد ينسى إلا ما تمليه عليه الملكات الممتازة من قوة واقتدار .

ولم يكن لجانب النبوغ الشعرى فى إسماعيل صبرى تاريخ قديم معروف . وقد عبر شوقى فى رثائه إياه عن ذلك بقوله :

إن فاته نسب الرضى فربما جريا لغاية سؤدد وطراف
شرف العصاميين صنع نفوسهم من ذا يقيس بهم بنى الأشراف
قل للمشير إلى أبيه وجده أعلمت للقمرين من أسلاف

وكثيراً ما كانت المواهب الممتازة لا ترجع إلى تاريخ قديم معروف ، بل كثيراً ما رأيت هذه المواهب الممتازة تتجلى فى أشخاص لا تلمح فى تاريخهم أية مقدمة لها . وهى قد تجلت فى نفس إسماعيل صبرى منذ كان فى السادسة عشرة من عمره ، وقبل أن يختط طريقه إلى السلك القضائى . فقد نشرت له مجلة روضة المدارس ومايزال فى هذه السن مقاطيع شعرية تلمح خلالها روح الشاعر ، وإن كانت فى تلك الحين قد كانت متأثرة أشد التأثر بأغراض الشعر فى عصر إسماعيل من مدح الأمراء وذوى السلطان . وروضة المدارس كانت يومئذ مجلة أدبية تعمل لإحياء اللغة العربية والشعر العربى .

ولما سافر فى الإرسالية وأقام بمدينة اكس أتيح له الإطلاع على الأدب والشعر الفرنسى . ويدل شعره فى السنوات الأخيرة على أنه تأثر بهذا الشعر كثيراً وأنه انطبع منه فى نفسه حظ غير قليل . على أنه لم يستطع فى أول أمره أن ينقل إلى الشعر العربى روحاً غربية مثلما فعل شوقى مثلاً . فأنت ترى فى شعر صبا شوقى الشىء الكثير المتأثر تأثراً بادياً بحياة شوقى فى أوربا . أما إسماعيل فكان منذ أول حياته شاعراً مقلاً . وكان ، على ما يظهر من شعره ، لا يتأثر سريعاً ، ولكن ما يؤثر فيه يبقى عالقاً بنفسه حتى يكون له مظهره ولو بعد حين .

والظاهر أن التقاء الحياتين الشرقية والغربية والشعرين الشرقى والغربى فى نفس إسماعيل صبرى ، أحدث أثراً عميقاً امتزج مع غريزة حياته . فقد كان رجلاً رقيقاً

كل الرقة دمث الأخلاق حاضر البديهة ، اجتمع له كل ما يعرف من صفات «ابن البلد» وظرفه . وإنك لتسمع ما يرويه عنه أصحابه من ذلك الشيء الكثير : فكان إذا ساء إنساناً من الناس ولم تطاوعه نفسه الرقيقة على الإغلاظ له فى القول ، طلب إلى صديقه حافظ إبراهيم أن يوقع بينه وبين هذا الثقيل حتى لا يضطر لمقابلته أو التحدث إليه . وكان كثير التندر ، حتى لقد تحكم عليه النكتة فلا يرى بأساً من أن يقول : إنه لو نزل كتاب مقدس فى القطب الشمالى لوعد الله عباده النار أعدها للمتقين . وكان ظرفه وخفة روحه وسرعة بديهته يلهانه فى كثير من المواقف ما لا يلهم المنطق . اعترف أمامه متهم بجريمة القتل فلما خلا مع زملائه للمداولة ورأى أن العقوبة هى الإعدام ، ذكر لهم أنه يشك فى اعتراف هذا الرجل لأنه لا يرى فى سيماه معنى شجاعة يمتاز به على سواه من أمثاله . وجىء بالرجل إلى غرفة المداولة وقال هو له : أتدرى أن اعترافك هذا يجعلنا نحكم عليك بالإعدام فكان جواب الرجل : لكن العمدة لم يقل هذا ، بل قال لى حين دفع لى الجنيهين إنى سيعنى عنى لأنى كنت فى السجن حين ارتكاب الحادثة . وتبين فعلاً أن الرجل كان فى السجن فلم يكن له فى الحادثة يد . وقضى ببراءته .

إلى جانب هذه الصفات التى يمتاز بها «ابن البلد» المصرى مما تأثرت به نفس إسماعيل صبرى الشاعرة بمخالطتها الوسط المصرى ، كان رجل اجتماع بالمعنى الإفرنجى الصرف ، أى رجل دنيا إذا أردت ترجمة العبارة الفرنسية homme du monde ترجمة حرفية . وكان له أصدقاء كثيرون جداً من الجاليات الأوربية المقيمة بالقاهرة . وكان يغشى اجتماعات من يختارهم من أهل هذه الجاليات بمقدار ما يغشى اجتماعات الظرفاء وأولاد البلد .

على أنه مع كل هذه الوداعة والظرف ومع ما كان يسيل به خلقه من رقة ، كان أبيًّا لا يقيم على ضيم . ذكر لى أصدقاؤه الذين عرفوه طوال حياته أنه برغم ما تقلب

فيه من كبرى مناصب الحكومة كان المصرى الوحيد الذى لم يقابل لورد كرومر ولم يدخل الوكالة البريطانية فى مصر ، وأنه حدث بينه وبين رياض باشا ، وكان رئيس النظار ، جفاء لحكم أصدره ماساً ببعض المحسوبين على رياض باشا . فلما جاء فى أحد المواسم إلى عابدين ومثل بين يدى الخديو توفيق ثم خرج من لدنه إلى رياض باشا مهنئاً إياه كرئيس حكومة أوقفه رياض باشا ولم يأذن له بالجلوس . وكان ابن رياض باشا واقفاً عند باب الحجرة التى يجلس فيها أبوه ، فقال إسماعيل صبرى مخاطباً الإبن بمسمع من الأب : قل لأبيك يحترم الناس كى يحترموه . وروى عثمان باشا مرتضى فى حفلة تأبين إسماعيل صبرى أن أحد قناصل الدول الأجنبية طلب إليه ، وكان محافظاً للإسكندرية ، أن يشيع جنازة غنى من أهل جاليته ترك ثروة طائلة كسبها فى مصر وأوصى بها كلها لبلاده . فكان جواب المحافظ أن اعتذر ، لأن المحتفل بجنازته لم يفكر فى مصر التى أثرى فيها ، فليس يطلب من مصرى أن يفكر فى مجاملته حياً أو ميتاً .

دعة وظرف ورقة وحسن معاشرة وإباء ، اجتمعت كلها فى نفس شاعر التقت فيه الحياتان الشرقية والغربية وألهمتها الطبيعة ذوق الجمال ، وبخاصة ما كان منه متعلقاً بالنغم الشعرى — فماذا ترى يكون أثر ذلك كله فى شعره ؟ فأما الرقة فقد تنفست فى شعر صبرى غزلاً بالمرأة وهياماً بجمالها أياً كانت هذا المرأة . وأنت ترى من ذلك شيئاً غير قليل حين تذهب إلى مراجعة شعر صبرى الغنائى . لكنك تراه ماثلاً بصورة حلوة جميلة آخذة باللب فى قصيدته البديعة (تمثال جمال) وبخاصة فى هذه الأبيات منها يخاطب المرأة الجميلة أو كما سماها « لواء الحسن » :

إن هذا الحسن كالماء الذى ... فيه للأنفس رى وشفاء
لاتردّى بعضنا عن وِرْده ... دون بعض ، واعدلى بين الظماء
ساعفى آمال أنضاء الهوى ... بقبول من سجاياك رخاء

وتجلى واجعلى قوم الهوى تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلى نستقبل الدنيا وما ضمنته من معدات الهناء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت لتوارى بلثام أو خباء
واخطرى بين الندامى يحلفوا أن روضاً راح فى النادى وجاء
وانطقى ينثر إذا حدثتنا ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمى ، روحانية لا تدعى أن هذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحىّ مَلَكٍ خلف تمثال مصوغ من سناء

وتراه كذلك فى هذه الأبيات يخاطب بها امرأة لا ندرى أية واحدة هى من ألْوِيةِ الحسن التى تزدحم عادة فى نفس ذوى الظرف والرقة ممن لا تحتمل نفوسهم طغيان الحب المستبد يذعن له الفؤاد والقلب والنفس والجوارح جميعاً إذعان خضوع وإيمان واستسلام ، وهو مع ذلك بإذعانه راض وبذله سعيد :

زيّنى الندى وسيلى فى جوانبه لطفاً يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حبانا بها الله
إن غاب ساقى الطلا أو صد لا حرج هذا جمالك يغنينا محياه

لعلك تلمح فيما نقلنا من هاتين القصيدتين — أو المقطوعتين إن شئت — شيئاً غير الغزل بجمال المرأة من غير تقيد بامرأة معينة . ولعلك تلمح فيها من الموسيقى أكثر مما اعتدت أن تلمح فيما تستمع إليه من شعر غير إسماعيل صبرى . وإنك لواجد هذه النغمة الموسيقية الحلوة الرقيقة فى أكثر شعره وإن لم يكن فى شعره جميعاً . بل إنك لواجدها حتى فى القصائد التى يكلف الشاعر نفسه أن يكون حماسياً فيها كقصيدة فرعون وقومه . بل إنك لواجدها حتى فيما يتكلف فيه الحكمة كقصيدة الساعة وما نظمه عن نجم هالى . وذلك طبيعى وقد كان إسماعيل صبرى مشغوفاً بالغناء

طول حياته إلى غير حد حتى كانت الحياة عنده قطعة من الموسيقى ، أو قل كان خير ما فى الحياة عنده قطعة من الموسيقى . وكان سمعه أكرم حواسه عليه . أليس فى رثائه يقول حافظ إبراهيم :

لقد كنت أغشاه فى داره   وناديه فيها زها وازدهر
واعرض شعرى على مسمع   لطيف يحس نبو الوتر

والحق أن إسماعيل صبرى لم يولع فى حياته بشىء ولعه بالغناء ، ولم يجاهد وهو فى مناصب القضاء لترقية شىء فى مصر أكثر من جهاده لترقية الغناء . كان ذلك شأنه منذ عهد الخديو إسماعيل باشا ، أى منذ أن نشأ يقول الشعر إلى أن مات . وكان لا يقف من شعره الغنائى عند الشعر العربى بل كان يختلط بالمغنين ورجال الموسيقى وكان يضع لهم أدواراً باللغة المصرية . وكان لذلك موضع محبة رجال الفن الموسيقيين والمغنين واحترامهم .

ولقد كان له فى هذا الباب فضل كبير : رفع الأدوار الغنائية من درك كانت فيه ، فجعلها ذات معان رقيقة تمثل عواطف طاهرة وميولاً سامية . وأدواره (قدك أمير الأغصان) و (الفجر لاح قوموا ياتجار النوم) وغيرهما لا تزال من أفضل الأدوار المصرية التى تغنى إلى وقتنا الحاضر . وقد عرفه الناس جميعاً بذلك حتى كان حجة يرجع إليه . روى لى أحمد شوقى بك حادثة غاية فى اللطف . تلك أنه كان عنده وهو يشغل منصب النائب العمومى يوماً وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث سياسى وقع فيها . وفيما هما جالسان يتحدثان دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير فقطع ذلك حديثهما وانتظرا أن يجدا فيه إشارة إلى الحادث السياسى وما يجب اتخاذه من الإجراءات بإزائه . فلما فض إسماعيل باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسماً . ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ قد بعث فى

هذا المظروف بدور غنائى وهو يطلب إلى النائب العمومى إصلاحه . ولهذه المناسبة قص إسماعيل باشا صبرى حادثاً وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الإسلامية على وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دماً لاقتتال الناس فيها . ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة لها فى نافذة مقابلة تطلب إليها وتراً تصلح به عودها . وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى إلى النائب العام أن يصلح له دوراً غنائياً بينما تموج البلاد بحادث سياسى لا تعرف نتائجه .

ولهذا الولع بالنغمة وبالغناء ترى الكثير من شعر إسماعيل صبرى صالحاً لأن يكون صوتاً يغنى فيه . اسمع إلى قوله يخاطب سيدة تدعى ألكسندرا :

انثرى الدر يا سمية أسكنـ ـدر لأفض عقدة من فيك
وأميطى عن الحقيقة ما يحـ ـجب عنا جمالها من شكوك

وقوله :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ماكانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحماً فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا

وغير ذلك مما يغنى فيه من شعر إسماعيل صبرى كثير .

أنت لا تستطيع أن تطلب إلى شاعر بلغ من الرقة ما بلغ إسماعيل صبرى وشغف بالغناء شغفه أن يكون ممن يجاهدون الحياة ويحاولون إخضاعها لرأيهم أوأن يكون قوى الإيمان مما فى الحياة بشىء . فالمرأة وجمالها والغناء وألحانه والموسيقى وأنغامها صور يطرب لها الحس وينطبع طربه فى النفس فيدعوها إلى الطمأنينة للحياة والاستهتار بما يشغل الناس أنفسهم فيها من شئون ، والتوافر على المتاع بهذا الطرب والحرص على استدامته والفزع لذلك من الموت . ويذكر الذين عرفوا إسماعيل

صبرى معرفة صحيحة أنه كان كذلك . لكنك مع ذلك ترى فى شعره نزعات تكاد تكون صوفية . وترى إلى جانب ذلك شيئاً من التبرم بالحياة ومن إيثار الموت واستعجاله . أليس يُذكّر بتغزل عمر بن الفارض سيخ الصوفية فى الذات الإلهية قول إسماعيل صبرى :

يارب أهلنى بفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
ياعالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الأوزار

أو ليست الحكمة كل الحكمة فى قوله :

أواه لو عقل الشباب وآه لو قدر المشيب

أو لم يقل الفلكيون أن نجم هالى المذنب الذى مر بالأرض فى سنة ١٩١٠ كان سيحرق الأرض ويقيم القيامة فابتهج إسماعيل لذلك وقال :

أنت نعم النذير يانجم هالى زلزل السهل والرواسى ذعرا
إن يكن فى يمينك الموت فاقذف ـه شواظاً على الخلائق طرا
أغداً تستوى الأنوف فلا ينظر قوم قوماً على الأرض شزراً
أغداً يصبح الصراع عناقاً فى الهيولى ويصبح العبد حرا
إن يكن كل ما يقولون فاصدع بالذى قد أمرت حييت عشرا

بل ألم يدعُ صبرى الموت كما دعاه فوست مستعجلاً إياه كى ينقذه من عذاب الدنيا حين قال :

يا موت خذ ما أبقت الأ يام والساعات منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

فكيف مع هذا كله يكون بشّاً للحياة طروباً بما فيها فزعاً من الموت ومن

العدم ، وكيف مع هذه الحكم التى نراها فى شعره يكون كل شغله بجمال المحسوسات من منظور ومسموع ؟ هذا اعتراض يرد للذهن لأول وهلة . لكن الشاعر لا يكون شاعر حكمة ولا شاعراً نفسانياً لمجرد ذكره خواطر فلسفية وعتها ذاكرته أكثر مما اهتزت لها نفسه . ثم هو لا يكون برماً بالحياة مؤثراً الموت لبعض أبيات قد تدفعه إلى قولها شئون خاصة . فالبيتان الأخيران اللذان رويناهما لإسماعيل صبرى – فى رواية بعض من عرفوه – لما كان يلقى فى حياته العائلية من أسباب الشكوى . وأما ذلك التصوف الذى نراه فى الأبيات الأولى فليس إلا مظهراً لما وعت الذاكرة راجع نفس الشاعر فى ساعات تغض فيها النفس بنعيم الحياة حين يفيض عنها فيضاً يجعلها تستغفر وتتوب برهة لتعود إلى نعيم الحياة وفيضه بعد ذلك مباشرة . فأما الشاعر النفسانى فهو الذى يحس فى أعماق نفسه بمعان قوية تظهر فى شعره ولو تحدث عن ظواهر تعدها أنت وأعدها أنا تافهة فى الحياة . من ذلك كثير من شعر أبى العلاء المعرى . ومنه كثير من شعر الإفرنج . كنت أعيد منذ بضعة أيام قراءة قصيدة (موت الذئب) لألفرد دفينى وأستعيد منها المعانى القوية التى تجيش فى نفس الشاعر الفرنسى وتتجلى فى كل قصائده . مثل هذا الشاعر النفسانى إن كان دينياً يرى فى جمال المرأة وفى تجاوب الموسيقى وفى ألحان الغناء معان دينية . وهو يرى هذه المعانى الدينية فى موت طفل وفى موت ذئب كما يراه فى الحب وفى كل صورة من صور الحياة ولون من ألوانها . وإن كان شاعر عاطفة أو شاعر فلسفة تجلت العاطفة والفلسفة فى شعره كله . فإذا رأيت له شعراً لا يعمره الجانب النفسى القوى من جوانب حسه أو شعوره أو تفكيره كان لك أن تحكم بأن ما اختزنته الذاكرة مما لم يؤثر فى النفس أثراً عميقاً هو مبعث هذا الشعر . وما تختزنه الذاكرة مما ينظمه الشاعر ليس هو المعبر عن نظرته للحياة وتقديره لما فيها .

كان إسماعيل صبرى إذن متأثراً بما تتأثر به العين والأذن من صور الحياة

وألوانها . وكان هذا هو الذى يوقع على وتر عاطفته أنغام شعره . وكان شعره لذلك جميل اللفظ غاية الجمال . وكان تأثره هذا يجعله معنيًّا بالجمال اللفظى أكثر من كل شاعر سواه . وإنك لتجد أمامك فيما نقلنا لك هنا من شعره مظهر ذلك واضحاً جليًّا . فرب فكرة عادية أو صورة تمر أمامك كل يوم تجدها فى هذا الشعر فإذا بها قد اكتست رونقاً وبهاء ما كان لها أن تكتسيهما لو أن شاعراً آخر هو الذى صاغها . والظاهر أن هذه النزعة القوية عند إسماعيل صبرى كانت ذات أثر كبير فى الشعر العربى فى هذا العصر . فحافظ إبراهيم لا يأبى أن يدعو إسماعيل صبرى أستاذه وأستاذ شوقى . وشوقى لا يأبى أن يعترف بأن هذه النظرة التى كان ينظر بها إسماعيل إلى الشعر أثرت فيه هو تأثيراً غير قليل . ولم ينشأ من الشعراء فى العهد الأخير من كانت له فى الشعر نفسية خاصة تخالف نفسية إسماعيل صبرى لتطبع الجيل الجديد كما طبع هو جيله بطابعه .

ولا أستطيع أن أختم هذا البحث العجل عن إسماعيل صبرى من غير أن أضع أمام القارئ أبياتاً أرتجلها تسيل رقة وتعبر أرق تعبير عن هذه النفسية التى كانت ترى العاطفة كما كانت ترى كل ما فى الحياة حساً منظوراً أو مسموعاً . ارتجلها يوم دفن ابن صغير للمرحوم الشيخ على يوسف فقال :

يا مالئ العين نوراً والفؤاد هوى ... والبيت أنساً تمهل أيها القمر
لا تخل أفقك يخلفك الظلام به ... والزم مكانك لا يحلل به الكدر
فى الحى قلبان باتا يا نعيمهما ... وفيهما إذ قضيت النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى ... ومن بكاء الثكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة ... يروح فيه ويغدو نفحها العطر
ما كان عيشك فى الأحياء مختصراً ... إلا كما عاش فى أكمامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعة ... فى ذمة الله بعد القبر يا عمر

لعلك وقد رأيت من إسماعيل صبرى وشعره هذه النفسية المشغوفة بالألوان تشعر إلى جانب هذا بما يشعر به كل من يقرأ شعر إسماعيل صبرى من أنه كان شاعراً مصرياً حقاً ، ومن أن النزعة البدوية كانت لا تعرف سبيلاً إلى نفسه ، وإن الرقة التى تسيل بها جوانب وادى النيل والصفو الذى يظل سماءه والخضرة النضرة التى تزين جنباته وأغاريد الطير فى هوائه الرقيق ، كل ذلك كان ينعكس فى نفس إسماعيل صبرى بقوة لا تراها فى كثيرين غيره من الشعراء . ولعلك لذلك تقر له باللقب الذى لقبه به معاصروه : لقب شيخ الشعراء .

وقضى حياته مغتبطاً بالحياة ، حتى إذا كان فى أخريات أيامه أصابته ذبحة صدرية قعدت به عن أن ينعم بشىء من الحياة خمس سنوات تباعاً ، ولعل بيته يخاطب الموت :

بنى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

كان يصدق عليه خلال هذه السنوات الخمس الصدق كله .

وقد خطى إليه الموت هذه الخطوة فى منتصف ليل ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ . وقضى يومئذ متحملاً معه مدرسة حافلة من مدارس الشعر ومذهباً جليلاً من مذاهب تقدير الجمال . قضى وخلف بعده من أثره مجموعة أشعار لم تطبع بعد لأنه كان يقول إنه وهب شعره للنسيان . وتلك هبة لن تتم . فالنسيان لا يتطرق إلى الكمال ولا يعدو على الجمال . لذلك نشر من شعره الشىء الكثير وحفظ أصحابه ما لم ينشر . ولعلنا نسعد برؤية مجموعة شعره مطبوعة عما قريب .

obeikandl.com

محمود باشا سليمان

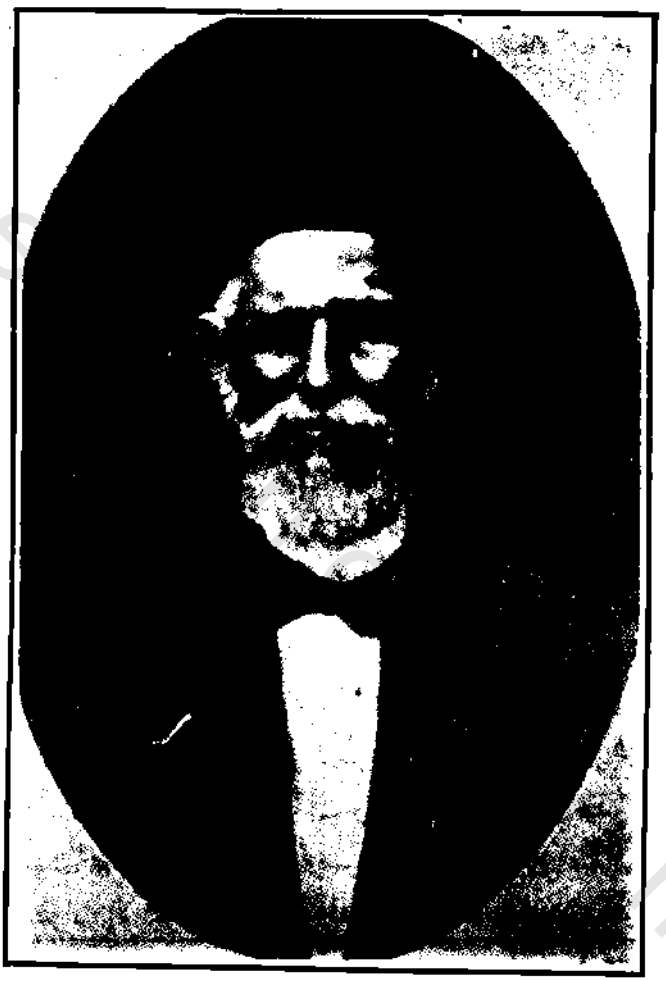

. . . وهذا أيضاً محمود سليمان باشا قد مات ، فأضاف حلقة إلى سلسلة عظماء مصر الذين ودعوا عالمنا فى السنتين الماضيتين[1] . لكنه ودعه على صورة غير تلك التى ودعوه عليها . هم كانوا بين مجاهد تحفزه قوى الشباب للجهاد ، وآخر بعض طبعه الكفاح ، وثالث اضطر لاعتزال الناس اضطراراً . أما هو فجاهد لخير وطنه فى شبابه ، ثم جاهد له فى كهولته ، ثم جاهد له وقد نيف على التسعين ، وبعد اعتزامه الانقطاع إلى الله وعبادته . فلما دب الخلاف بين المصريين واندلع لهيب الفتنة فى البلاد نأى عن الفتنة مختاراً وعكف على ما اعتاد من عبادة وتقوى ، وظل فى تقواه وفى عبادته ينتظر بقلب مطمئن ونفس هادئة اليوم الذى يختاره الله فيه إلى جواره . فلما كان عصر يوم الثلاثاء الماضى أغمض عينه عن عالمنا هذا ليفتحها هناك

(١) كتبت هذه الرسالة لمناسبة وفاته فى ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ .

فى العالم الذى قضى سنيه الطويلة يرجوه ، عالم أجر وسعادة لا يعرفان الزمان ولا المكان لأنهما يسموان على كل زمان ومكان .

وليس كثيرون من أبناء هذا الجيل من يذكرون شخص محمود باشا سليمان ، وإن كانت أجيال مصر المتعاقبة ، وكان تاريخ مصر يذكره أطيب الذكر . وليس كثيرون من يذكرون هذا الرجل المهيب فى وقاره النحيف فى جسمه الطويل القامة فى اعتدال ، الحاد النظرات الأسمر اللون الجليل المشيب . ولئن كانت قد مضت سنوات لم أره فيها ، فإنى ما أزال أذكر أول مرة رأيته ، وكنت ما أزال طالباً بالحقوق ، وكنت أتردد على دار « الجريدة » عند أستاذنا لطفى بك السيد . فبينا أنا هناك فى أحد أيام ربيع سنة ١٩٠٨ دخل محمود باشا سليمان فحياه الحاضرون فى إجلال واحترام وقدمنى له لطفى بك . وأشهد لقد جلست وفى نفسى شىء من الرهبة أمام هذا الشيخ الذى يحمل طى تجاعيد وجهه صحفاً مجيدة من تاريخ مصر . جلست وجعلت أحاول أن أختلس ، فى نظرات يداخلها الحياء والخوف ، صورة رئيس حزب الأمة آتياً يتحدث إلى كاتب حزب الأمة . وانتظرت أن يتكلم ، فمضت لحظات خلتها طويلة طويلة وخلت معها أن وجودى قد يحول دون الشيخ والكلام ، فاستأذنت وانصرفت . ولم أره بعد ذلك غير مرات قليلة كانت الأخيرة منها حين كان رئيساً للجنة الوفد المركزية وحين كانت تتعلق باسمه آمال الوفد المصرى فى أوربا ، وآمال المصريين فى مصر .

هذا الرجل قد غادرنا بعد أن طوى رحلة الحياة فى أناة وتؤدة ووقار ، وانتقل منها فى مثل هذه التؤدة والأناة والوقار إلى جوار ربه وما يرجو من حسن ثوابه . غادرنا بعد إذ خلف وراءه تاريخاً حافلاً جليلاً وذكراً لا تشوب سواطع نوره شارة من ظلام . فلقد وهب هذا الرجل حياته كلها لله ولوطنه ولأبنائه . كان فى عهد إسماعيل باشا الخديو رجلاً كاملاً مسموع الرأى نافذ الكلمة ، ترك عمدية بلده

ساحل سليم ونظارة القسم التى تتبعه إلى وظائف وكيل مديرية فى جرجا وفى أسيوط . فلما صدر القانون النظامى بعقد مجلس النواب فى عهد توفيق باشا تقدم للنيابة عن الأمة وانتخب عضواً بمجلس النواب وألقى عليه أن يلقى خطاب العرش ، وكان له فى هذا المجلس مواقف يذكرها له التاريخ . فلما شبت نار الثورة العرابية كان من بعيدى النظر الذين قدروا ما يمكن أن يصيب البلاد من جرائها ، فتنحى عن الاشتراك فيها كما تنحى بعد ذلك عن الاشتراك فى النظام الذى أعقبها . فمع هذه المكانة الكبيرة التى كانت له ، ومع ما أظهر من مقدرة فى مجلس النواب الذى سبق الثورة ، ومع أنه لم يكن من أنصار الثورة وأعوانها ، فإنه لم يربعد فشل الثورة واحتلال الإنجليز مصر أن يتقدم للعمل العام تحت النظام الجديد الذى سنه الإنجليز لمصر حين استصدروا من الخديو قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية ، بل تنحى عن العمل العام وترك القاهرة إلى الصعيد ، وعكف على عمله الخاص وعلى البر بالفقراء . وظل كذلك من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٥ حين أخرجه ظرف محلى خاص من هذه العزلة وجعله يتقدم لعضوية مجلس الشورى ، وما لبث أن عاد إلى القاهرة وإلى العمل العام حتى انتخب وكيلاً للمجلس وحتى كانت له فيه مواقف مشهودة . وإذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين إلى مطالبة الإنجليز بأن يخلوا بين مصر ووضع نظام الحكم فيها ، فلقد كان المغفور له محمود باشا فى مقدمة هؤلاء . كان فى مقدمتهم منذ كان عضواً فى مجلس الشورى وحين ترأس بعد ذلك حزب الأمة . وإذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين إلى الأحزاب المنظمة ، فإن محمود سليمان باشا هو أول من ترأس حزباً ذا برنامج ونظام فى مصر . فلقد كانت الأحزاب المصرية إلى يوم تشكيل حزب الأمة تقوم على فكرة الدعوة لعمل واحد معين . فالحزب الوطنى أيام عرابى باشا كانت مطالبه محصورة فى الدستور وفى التسوية بين المصريين والأتراك من رجال الجيش . والأحزاب والهيئات التى جاءت

بعد ذلك كانت تطلب مطلباً واحداً كجلاء إنجلترا عن مصر أو ما هو من ذلك بسبيل . أما حزب الأمة فكان أول الأحزاب التى وضعت لها برنامجاً مفصلاً يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعاً . وعلى نهجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك .

ولقد تألف حزب الأمة على هذه الصورة فى أخريات سنة ١٩٠٧ وسبقته الجريدة ، التى كانت بعد ذلك لسان حاله بشهور . وكان رئيس شركة الجريدة ورئيس حزب الأمة هو المغفور له محمود باشا سليمان . فلما حدثت بعد ذلك بسنوات أسباب للخلاف بين المسلمين والأقباط وكان من أثرها إن عقد الأخيرون مؤتمر أسيوط يتهمون فيه حكومات ذلك العصر بأنها تنئى الأقباط عن مناصب الحكم ولا تعطيهم حظهم الكامل منها ، وكانت هذه الحركة خطيرة النتائج ، كان محمود سليمان باشا من الذين تقدموا للقضاء عليها ولإعادة الألفة بين العنصرين . ولذلك تألف المؤتمر المصرى بهليوبوليس واختار رياض باشا رئيساً له ومحمود سليمان باشا وكيلاً له ، وفند مزاعم الأقباط يومئذ وأظهر الناس على أن لهم من مناصب الحكم أكثر من نسبتهم العددية بكثير ، ودعاهم إلى أن يكونوا فى وحدة الأمة صفاً .

وجاءت الحرب الكبرى وكان محمود باشا قد جاوز الثمانين وحق له أن يستريح من عناء العمل وأن يخلص كل نفسه لله فى انتظار لقائه إياه . والحق أن صفحات الجهاد التى كانت له فى ماضيه وما قام به كأب من حسن العناية وجميل البر بأبنائه كان كافياً وفوق الكفاية ليكتب لهذا الرجل صحيفة مجد باقية . وصحت عزيمته على الاعتزال والانقطاع لله حتى لقد خرج من ماله لأبنائه فى سنة ١٩١٦ واعتزم عيش الزهادة والنسك وتمام الانقطاع لله . وما أجمل هذه الشيخوخة الطاهرة المنزهة عن شوائب الهوى والتى قامت فيما سبق لها من سنى الحياة بما يطلب إلى الرجل من جد وبر وتقوى ، تقضى فى حساب النفس والقربى إلى الله ورجاء

مغفرته وثوابه . ما أجمل الشيخ يصل إلى قمة الحكمة بعد أن يطوف من الحياة بشهواتها وأهوائها ومطامعها ومالها ومجدها فتدعوه الحكمة إلى أن ينظر إلى الأهواء والمطامع والشهوات جميعاً نظرة إصغار أن كانت لا بقاء لها ولا متاع للنفس بها ، وإنما المتاع بإمعان النظر فى الكون واستكناه مافيه من خير وحق وجمال .

على أن الأقدار كانت قد احتفظت لمصر بصفحة أخرى من صفحات المجد يخطها محمود سليمان باشا . ليكن لشيخوخته عليه حق ، ولتكن خير خاتمة المرء أياماً تقضى فى العبادة والتقوى ، وليكن محمود سليمان قد خرج من دنياه تاركاً إياها إلى أولاده وانقطع لنفسه ولربه – ليكن ذلك كله فإن للوطن مع ذلك عليه حقًّا ، وهو لم ينس يوماً حق الوطن عليه ، لذلك ماكادت الحرب العامة تضع أوزارها ، ثم ماكادت الحركة الوطنية المصرية تبدأ ، حتى إذا هذا الشيخ خرج مرة أخرى من عزلته وجاء ينضم إلى صفوف المجاهدين لإعلاء شأن الوطن ورفع مناره وتقديس كلمته . ولئن كان قد نيف على الثمانين فلن تزيده سنة ولن يزيده مجده ومقامه وعظمته إلا حرصاً على الوقوف فى الصف الأول من صفوف المجاهدين ، وأن يكون فى مقدمة من يتعرض لما يصاب به من يتعرض للدفاع عن عظمة هذا الوطن واستقلاله . وكان منظراً يبهر النفس ما فيه من مهابة وإجلال . فقد جلس محمود باشا فى رياسة لجنة الوفد المركزية يوم كانت البلاد تضطرب أحشاؤها من أقصاها إلى أقصاها ويوم كانت الأحكام العرفية بالغة قسوتها أعظم مبلغ ، جلس فى رئاسة لجنة الوفد المركزية وجعل من داره كعبة قصاد خدمة الوطن وأقسم لا يتزحزح إلا أن تزحزحه القوة . وأرادت القوة يوماً أن تبتلى ثباته وعزمه فأصدرت له الأمر أن يبرح القاهرة ، فإذا به لا يبرحها حتى ذهبوا إلى ذهبيته وأبعدوها عن ميدان العمل السياسى على كره منه . ولقد كان فى ذلك ، كما كان فى غيره سباقا إلى مثل التضحية والمكانة العلية . وكان فى هذا مثلا عاليا من النزاهة والتضحية لخير الوطن .

ولما آن للبلاد أن ينقسم بعضها على بعض وأن تقوم بين أهلها الفتنة ، اعتزل الميدان نهائياً وإن لم ينس قديم صلاته بأصدقائه سواء منهم من كان فى فريقه السياسى أو من كان فى فريق مخاصم له . وعلى اشتداد الخصومة فى وقت من الأوقات بين الأحرار الدستوريين وسعد زغلول باشا فإن محمود باشا سليمان كان أسبق من أرسل إلى سعد باشا على أثر عودته من جبل طارق يهنئه بسلامة مقدمه . وكذلك كان فى هذه كما كان فى غيرها عظيماً سامياً فوق شهوات الساعة ، كبيراً عن أن يتأثر بالأهواء الطارئة .

ومن يوم اختلفت الأحزاب فى مصر عكف هو على ما كان قد اعتزم منذ سنوات من الانقطاع لله ولعبادته . وظل كذلك حتى ارتضاه الله إلى جواره يوم الثلاثاء ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ . ارتضاه إلى جواره فخلف هذه الدنيا فى أناة وتؤدة وحكمة كما عاش فيها فى أناة وتؤدة وحكمة .

obeikandl.com

عبد الخالق ثروت باشا

ما أحسب فجيعة من الفجائع التى منيت بها الأمم كانت أشد وقعاً على النفوس من فجيعة مصر فى المغفور له عبد الخالق ثروت باشا . وما أحسب رجلاً وجل خصومه كما وجل أصدقاؤه لفقده ، كما اشترك أصدقاء هذا الفقيد العظيم وخصومه فى وجلهم لرحلته رحلة الأبد . ثم ما أحسب العقل والعاطفة والحواس جميعاً اهتزت بالحسرة وبالأسى اهتزازها لهذا الحادث الذى رج نفوس الناس رجاً بل دكها دكاً ، ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة الأسيفة التى عرفت فيها الخبر إثر الوفاة بسويعات حين دخلت إلى صالون السيدة المحترمة هدى هانم شعراوى بباريس فألفيتها وألفيت الأستاذ الكبير هلباوى بك وألفيت زائريهما وكلهم باكو العين والفؤاد وكلهم فى شبه ذهول لما أصاب مصر فى مصرع هذا الرجل الذى كانت تعتبره مصر كلها ملاذها إذا حزب الخطب وضلت بساسة مصر وساسة إنجلترا

السبل . ثم لن أنسى ما حييت إسراع المصريين وأصدقاء مصر الأجانب إلى سكنه فى باريس بشارع أناتل دلافرج Anatole de la Forge وليس منهم من يقف فزعه لوفاة رجل كان له بعد فى الحياة سعة ، بل كلهم أشد فزعاً لمصر وما أصابها بفقد هذا الربان الذى اختاره القدر ليسير بدفة سفينتها حين الزعازع الهوجاء فينقذها من أدق المواقف . لن أنسى هذا ، ولن أنسى صاحب الدولة عدلى باشا يكن فى منزل الفقيد وفى مشهد جنازته بباريس وهو يتساءل عن الوفاة وكيف كانت فى جزع دونه جزع الأخ لفقد أعز أخ له عليه ، وهو يحاول حبس عبرته فتخونه كما تخون جميع الذين شهدوا صندوق جثمان الفقيد ينقل من عربة الجنازة إلى عربة السكة الحديدية . وكيف ينسى إنسان هذا وما أحاط بالفاجعة ولكل إنسان من هذه الفاجعة الأليمة نصيب لأنها فاجعة مصر وفاجعة السلام ؟

ويأبى القدر إلا أن يحيط هذه الفاجعة بما يزيدها هولاً ، إذ يختطف الرجل فى بلاد نائية عن وطنه ويختطفه على عجل ، كأن للقدر عند مصر ثأراً لا تهدأ ثائرته إلا إذا أشعرها ألماً موجعاً ينقض الضلوع بعضها على بعض . فلقد كان ثروت فى صحته حين جاء إلى باريس من سان مورتز يوم الإثنين السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ – أى قبل وفاته بخمسة أيام . فلما كان يوم الجمعة الحادى والعشرين من سبتمبر خرج فى الصباح كعادته وعاد بعد الظهر بقليل يشكو ألماً فى الكتف وفى الظهر . واستدعى طبيب الحى ففحص الحالة ورأى أنها بسيطة لا تزيد على روماتزم يزول فى زمن قصير . لكن الآلام تزايدت فى أثناء الليل . فلما جاء محمد على دلاور بك فى الصباح ليعود صديقه رأى معه ضرورة استدعاء أستاذ أخصائى أجابهم أنه سيكون هناك فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، لأنه لا يستطيع ترك المستشفى الذى يعمل فيه قبل هذا الموعد . وحضر الأستاذ الطبيب فى الموعد ، فلما فحص المريض فى سريره وخرج إلى قاعة الاستقبال خرج دلاور بك فى أثره يسأله

رأيه . وكان رأياً مروعاً . فالباشا اعترته ذبحة صدرية إن استطاع احتمالها ساعتين كان فى نجاة حياته شىء من الأمل : لكن الطبيب فى شك من استطاعة احتماله إياها وهو ما كاد يغادر غرفة الاستقبال إلى سلم الدار حتى إذا ثروت باشا قد شعر بالتنفس يضيق ثم يضيق ثم يضيق ، فيؤلمه ذلك ويوجعه . ولكى تخفف من هذا الألم رفعت السيدة المحترمة زوجته إياه إلى صدرها . ثم لم تلك إلا لحظة حتى شعر الباشا بشىء أنطقه فى دهشة وعجب بلفظ «الله» وكانت هى آخر كلمة قالها . فإن شريااً متصلاً بالقلب انفجر فى هذه اللحظة أشعره الخطر حين لم يك إلى دفع الخطر سبيل ولا إلى اتقاء الكارثة التى تفجر لها فؤاد مصر وسيلة . ونودى بالطبيب فعاد فإذا به أمام جلال الموت وكان من برهة أمام رجل ألبسته الحياة وألبسها كل حلل الجلال .

وكأنما أراد القدر إذ كتب لوح أجل ثروت فى باريس بعيداً عن بلاده وكتب على زوجه أن تكون فى هذه الساعة العصيبة إلى جانبه ، أن يحيط الفجيعة المفزعة بما يخفف من هول وقعها ، فجمع بباريس فى هذه الفترة جماعة من أخصاء ثروت وأصدقائه ومحبيه وعارفى فضله فى خدمة بلاده . جمعهم ليكونوا إلى جانب جثمانه وليحاولوا عزاء زوجته وولده مصطفى المقيمين معه . وقام المصريون المقيمون فى باريس وطائفة كبيرة من الفرنسيين وغير الفرنسيين فى اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة وتشييع الرفات فى سفرها لتستقر فى ثرى الوطن بكل ما يجب لثروت من إكرام وإجلال .

وفى هذين اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة والتشييع إلى ثرى الوطن كنت تسمع من المصريين جميعاً عبارة ملكت عليهم ألبابهم : من ذا يحل عقد المشاكل إذا انعقدت بعد ثروت ! كنت تسمع هذه العبارة تصدر منهم جميعاً على اختلاف نحلهم وأحزابهم ، أو لم يكن هو دائماً الموئل الذى يلجأ إليه المصريون مهما علت أقدارهم والذى يلجأ إليه الإنجليز حين يحزب الأمر ولا يكاد إنسان من الناس يرى

له من طريق السلام فرجاً ولا حلاً ؟ لذلك كان الكل ينظرون إليه كأنه الربان الذى ينقذ السفينة كلما ارتطمت على الصخر وخيف عليها أن تتحطم . فطبيعى أن يتساءل الكل عمن يحل عقد المشاكل إذا تعقدت بعد موته .

ولعل أحداً لم يذكر فى وفاة ثروت مصاب زوجه وأبنائه فيه ، لأن الناس نسوا فى هذه الوفاة كل مصاب غير مصاب الوطن . مع هذا فمصاب بنى ثروت ومصاب أصدقائه فيه كأب وكصديق فادح فاجع كمصاب الوطن سواء بسواء . فلقد كان أبر أب بأبنائه وأوفى صديق لأصدقائه . بل إن الذين عرفوه أباً ليذكرون كم كان بره عظيماً وكم كان حنانه أعظم من بره . وكم كان صديقاً لأبنائه بمقدار ما كان أباً لهم . وكم كان يجد فى صداقتهم له ما يزيد فى عواطف الأبوة والبنوة سمواً ورقة . وإن الذين عرفوه صديقاً ليعرفون له من الوفاء لهم ما قل أن يكون له فى صديق مثال . ثم هو إلى جانب ذلك كان حصافة الرأى ونبل الشمائل والشهامة والذكاء صورت كلها رجلاً .

* * *

ولد محمد عبد الخالق ثروت سنة ١٨٧٣ وفى بيت جاه ونعمة . كان أبوه المغفور له إسماعيل عبد الخالق باشا ابن المرحوم عبد الخالق أفندى من أصل أناضولى ، وكان من كبار الحكام فى عهد محمد على الكبير . وكانت أمه من بيت تركى هى الأخرى . وقد أرسل به أبوه إلى مدرسة عابدين وهو فى الثامنة من عمره ، ثم تابع دراسته فى مدرسة النورمال حتى إذا نال شهادة الدراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ثم كان أول الناجحين فى إجازة الليسانس سنة ١٨٩٣ .

وكان ثروت الطالب . على ما ذكر الأستاذ لطفى بك السيد زميله فى مدرسة الحقوق ، « شاباً حسن الطلعة ، تعلوه سيما الجد فى غير عبوس ، مترفعاً فى غير كبر ، سهل الأخلاق دون فناء فى الأغيار . وكان فى ألمه وفرحه معتدلاً محتفظاً فى

كل حال بكرامته ، نافذ الرأى فى بيئته ، ودوداً من غير إلحاح ، ومتحفظاً من غير انقباض ، محبب العشرة فى رقته . وكان فى جاذبيته وحلاوة حديثه متفوقاً كما كان فى ذكائه واجتهاده . نعم فقد كان ذكياً حاد الذكاء موانى البديهة كثير الاشتغال ، فوق درس الحقوق ، بمناحى الثقافة يلتمسها فى الآداب الفرنسية والعربية . وأكثر ميله فى هذا الباب إلى التاريخ على العموم والتراجم على الخصوص ، ميل كبر معه حتى صار فى السنين الأخيرة من حياته نوعاً من الشغف» وكان لشغفه هذا مظهر عرفه عنه كل أصحابه وعرفه عنه باعة الكتب فى مصر وفى باريس بنوع خاص . فقد كان كثير التردد عليهم والبحث فى مخازنهم عن كتب قديمة نفذت طبعاتها ، وكان لا يأبى أن ينفق فى هذا البحث أياماً متتالية حتى يقع على طلبته . فإذا وقع عليها أمعن فيها بحثاً وتقليباً حتى يقف منها على غاية البحث الذى يدور بخاطره .

ولما نال إجازة الحقوق التحق موظفاً بوزارة الحقانية سكرتيراً للمستشار القضائى بها . وكان المستشار القضائى يومئذ جون سكوت من أحسن من عرفت الحكومة المصرية مقدرة ونزاهة . وسرعان ما قدر مواهب ثروت حتى اختصه بكل ثقته وحتى وضع فى يده كل نفوذه . ونفوذ المستشار الإنجليزى يومئذ كان أقوى من نفوذ الوزير المصرى ، بل كان نفوذ أى موظف إنجليزى أقوى من نفوذ أكبر كبير من ولاة الحكم فى مصر . لذلك كان ما استولى عليه ثروت من نفوذ ومن ثقة بحيث طوع له أن يقوم فى وزارة الحقانية مقام صاحب الأمر والنهى فيها وما يزال شاباً لم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه . وعاونت هذه الحرية فى السلطة ما وهب من مقدرة وذكاء ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى تقدم فى وظائف القضاء وحتى عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف ثم نقل مديراً لأسيوط ثم عاد إلى الحقانية نائباً عاماً واختير وزيراً لها فى سنة ١٩١٤ .

على أنه لم يقصر نشاطه فى هذه الفترة من حياته على المناصب التى تولاها والتى أسرع به الزمن فيها إلى حد لم يعرفه غيره ، ثم كان بثقافته وذكائه واقتداره مثلاً عالياً للموظف الكفء القدير. بل لقد أسلس من نشاطه إلى أعمال عامة لا اتصال لها بالحكومة ، بل كانت الحكومة تنظر إليها فى كثير من الأحيان بشىء من الريبة والحذر. انتخب عضواً فى إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وعضواً فى إدارة الجامعة المصرية ، وكان يومئذ ما يزال يشغل منصب النائب العام. وكانت له فى الجامعة وفى الجمعية سلطة نافذة وإرادة قوية ، ثم كان لنفوذه بعد أن علا فى العالم السياسى نجمه ما زاد الهيئتين قوة واقتداراً على القيام بالأعمال الجليلة فى البر وفى الثقافة مما أنشئتا من أجله.

وقد ظل اقتداره وظل نفوذه معروفاً فى الدوائر الخاصة بالقضاء وعند المسئولين عن شئون مصر العامة ، حتى عين فى منصب النائب العام. وكان المسئولون وكانت دائرة القضاء تقدر فيه إلى جانب فضله حرصه على تنشئة من يتوسم فيهم الكفاية والمقدرة من الشبان وممن يطمع فى أن يقوموا لبلادهم بمثل الدور الذى قام به هو لبلاده. فلما كان صاحب الدعوى العمومية أتاح له حادث خطير أن يتصل بالجمهور اتصالاً مباشراً ، فقد اعتدى إبراهيم ناصف الوردانى على حياة المرحوم بطرس باشا غالى فى سنة ١٩١٠ بأن أطلق عليه الرصاص ساعة خروجه مع ثروت باشا النائب العام من وزارة الحقانية وتولى ثروت بنفسه تحقيق هذا الاعتداء والمرافعة فى الدعوى. هنالك اطلع الجمهور منه على اقتدار خاص. وهنالك بدأ الجانب السياسى من حياة الرجل تظهر نواته وتكاد تتحدد سياسته. فالعبارة التى ننقلها من تلك المرافعة تلخص إلى حد كبير ما جرى عليه ثروت كوزير وكرجل سياسى بقية حياته ، قال :

« نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العامة ويرى أن السعى بالطرق المشروعة

فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على المصرى ، وأن كل مصرى مطالب بتضحية شيء من وقته وماله وهمته فى خدمة بلاده . نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال أشق المشقات فى إعلاء اسم مصر وزيادة شرفها ورفعتها . كذلك نرى أن من مرقيات الأمم الدارجة فى رقيها النظر فى أعمال القابضين على أزمة الأمور فيها ونقدها . ولكنا لا نسلم بحال من الأحوال أن يتطلع إلى مقام ناقد الحكام إلا رجل جمع إلى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان فى القول والفعل حتى يقدر الأعمال قدرها وينظر فى الأمور بفكر صحيح ، فلا يتعدى حد المشروعية وإلا انقلبت الخدمة وبالا وإرادة الخير شرًّا »

هذه العبارة من مرافعة ثروت تنم من حياته السياسية المستقبلة عن جانبين : الأول تقديره السعى لتقدم البلاد واستقلالها على أنه فرض من فروض العين على كل مصرى . والثانى أن يكون ذلك السعى بالطرق المشروعة لا بالفوضى ولا بالاعتداء . ولئن كان هذا التعبير – بالطرق المشروعة – هو الذى اتخذته مصر من بعد شعاراً لها فى المطالبة بحقوق كان ثروت بطل تحقيق النصيب الأوفى منها ، فإن هذا التعبير بالذات قد جعل ثروت كنائب عام يقف من كثرة شباب مصر يومئذ موقف الريبة . فالشاب ، وإن قدر بعقله ما للحق فى ذاته من قوة تتغلب على كل قوة سواها ، متعجل يريد أن يرى الحق فى قبضة يده أو هو يصفق وإن فى أطواء قلبه لمن يعتدى على من يحسبه الحائل دون هذا الحق . لذلك كان الوردانى موضع عطف الكثيرين من الشباب وإن لم يكن موضع عطف الذين يقدرون الأشياء بنتائجها من المسئولين ، ولذلك كان ثروت بمرافعته موضع إعجاب المسئولين وتقديرهم وموضع حنق الشباب عليه مع إعجابهم بمقدرته كالمسئولين سواء بسواء .

ولم يحرك حنق الجمهور ولا متابعته الشباب فى غضبة أى عصب من أعصاب ثروت . ذلك بأن جانباً ثالثاً من جوانب حياته السياسية كان الاعتداد برأيه هو

وبعقيدته لا برأى الجمهور وعقيدته فيه . فهو ما اطمأن ضميره ورضيت نفسه مقدم على عمله غير عابىء برأى الناس فى إقدامه . وهو مقدم فى جرأة عجيبة لا يسهل تصديقها إلا على الذين عرفوا قدر دماثة الخلق ووداعة الطبع وحب الخير والميل العظيم إلى البر والرحمة .

وحرك الحكم بالإعدام على قاتل بطرس غالى النفوس بشىء من مثل ما تحركت له على أثر الحكم فى قضية دنشواى ، وكان بطرس رئيساً لمحكمتها المخصوصة . تحركت النفوس ذاكرة دنشواى واتفاقية السودان ، ملتهبة غيرة بما سمعت فى الدعوى من مرافعات الدفاع عن الوردانى مرافعات حارة تفيض تقديراً لوطنيته التى دفعته إلى جريمة ارتكبها مدفوعاً بعوامل لا قبل له بمقاومتها . والحق أن هذا الحادث الذى عقب حكم دنشواى فى سنة ١٩٠٦ ثم صدور العفو عن المحكوم عليهم من الدنشوائيين فى سنة ١٩٠٨ ثم وفاة مصطفى كامل ، الذى جاهد حتى استصدر العفو ، بعد صدوره بشهر واحد . نقول إن هذا الحادث حرك النفوس فى مصر إلى المزيد من السعى فى المطالبة بحرية كان الشعور ما يفتأ متزايداً بأن الاحتلال الإنجليزى القابض على أزمة الأمور فى مصر يحاول القضاء عليها قضاء أخيراً . وكان من أثر هذا الشعور ، الذى ازداد التهاباً حين أحس بتخلى أوربا عنه بالاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وإنجلترا فى سنة ١٩٠٤ وبعجز الباب العالى الذى انهزم أمام إنجلترا فى حادث طابه فى سنة ١٩٠٦ ، أن بدأت فى البلاد حركة اعتماد على النفس وتقدير لما يجب من جهود المصريين لوطنهم بما جعل الحكومة المصرية التى تقوم لتستر الحكومة الفعلية ، حكومة المستشارين الإنجليز ، تحس بغضاضة على نفسها وحرج فى مركزها . وكان ذلك شأن حكومة محمد سعيد باشا التى تولت مناصبها بعد وفاة بطرس . على أنها حرصت على أن تظهر فى مظهر الحكومة الوطنية فيما كان يقع من مناقشات فى مجلس الشورى ، ثم ظهرت كذلك فى مظهر الحكومة

الوطنية حين استصدرت ، بموافقة إنجلترا وعميدها فى مصر لورد كتشنر الذى خلف سيرالدون غورست بعد وفاته ، قانوناً جديداً لنظام الحكومة المصرية ، هو قانون الجمعية التشريعية .

وتمت الانتخابات لهذه الجمعية فى أواخر سنة ١٩١٣ ، وبدأت عقد جلساتها منذ أوائل سنة ١٩١٤ بعدما انتخب فيها من أقوياء الحجة فى مصر وذوى المكانة منها ما جعل الحكومة لا تستطيع متابعة صول مناقشة الجمعية إياها ، فاستقالت وإن لم يكن من ثم نص فى القانون النظامى بمسئوليتها أمام هذه الهيئة النيابية . وشكل حسين رشدى باشا الوزارة الجديدة واختار ثروت باشا وزيراً للحقانية فيها .

على أن الحرب العظمى لم تلبث أن أعلنت فى أغسطس سنة ١٩١٤ فلم يكن بد من إرجاء عقد جلسات الجمعية التشريعية حتى انتهائها . ويذكر الذين عاشوا هذا الظرف الدقيق من حياة مصر والحكومة المصرية كم كان مركز مصر حرجاً ، وكم كان مركز الحكومة المصرية أشد حرجاً ، فمصر كانت ولاية عثمانية ممتازة تدين بالولاء لتركيا ، وخديو مصر عباس حلمى الثانى كان غائباً عن مصر مقيماً بالآستانة متهماً فى نظر الإنجليز بالتآمر مع تركيا ومع ألمانيا على إنجلترا وعلى الحلفاء . ورشدى باشا رئيس الحكومة والقائم مقام الخديو مدين هو وحكومته لتركيا وللخديو بالإخلاص والولاء . وإنجلترا صاحبة اليد العليا فى مصر والجيوش الجرارة على أرضها تملك بكلمة أن تضمها إلى أملاكها من غير أن يستطيع الخديو أو تستطيع تركيا دفاعاً عنها . وهيهات إذا ضمت مصر إلى أملاك إنجلترا أول الحرب أن يكون أمل فى أن تخرج من هذا المركز بعد الحرب إذا انتهت هذه الحرب بانتصار إنجلترا وحلفائها ، أو أن يكون أمل حتى فى مركزها كولاية عثمانية ممتازة إذا انتهت الحرب بانكسار إنجلترا وانتصار الألمان عليها . فما عسى تصنع حكومة حسين رشدى فى هذا المركز الدقيق ؟

وزاد مركز تلك الحكومة دقة وحرجاً أن الشعور العام فى مصر كان ميالاً إلى جانب ألمانيا آملاً فى فوزها طامعاً فى أن تحرر من نير إنجلترا ، وكأنما تجددت يومئذ فى نفوس المصريين الذين كانوا يعتمدون من قبل على فرنسا لتجلى لهم جنود إنجلترا عن أرضهم آمال فى الاعتماد على ألمانيا لتحقق لهم هذه الغاية . وكان هؤلاء المصريون الموالون لألمانيا بعواطفهم يدورون فى الأندية والأماكن العامة وفى قطارات السكة الحديد وبيدهم خرائط الحرب مؤشراً عليها بمواقع القتال وبما كسب الألمان واندحر الحلفاء . ودعاية كهذه من شأنها أن تعد البلاد للثورة إذا لم تكن حكومتها مستعدة لقمع كل حركة من الحركات الطائشة فيها . لكن هذا الاستعداد من جانب حكومة رشدى باشا لم يكن له تأويل إلا الدفع بمصر إلى أحضان إنجلترا والخروج بذلك على ما كان معروفاً يومئذ من ميول تركيا ميولاً انتهت بخوضها غمار الحرب إلى جانب ألمانيا ، فوقفت تلك الحكومة محاولة أن تصل إلى خير الوعود من إنجلترا بالنسبة لمصر يوم تنتهى الحرب لمصلحة الحلفاء ، عاملة على أن يصيب مصر أقل ضير ممكن من جراء الحرب ، نافضة يدها بعد ذلك من شئون الدفاع عن مصر بعد ما أعلنت إنجلترا الأحكام العرفية فيها وأخذت هذه المهمة على عاتقها ، منتظرة تطور الحوادث وما يمكن أن يجىء القدر به .

وأعلنت تركيا الحرب منضمة إلى ألمانيا ، فألفت إنجلترا الفرصة سانحة لتغيير موقف مصر السياسى . وقد دار بخاطر أولى الأمر فى لندن — على ما ذكر لورد جراى وزير الخارجية الإنجليزية فى ذلك الحين — أن يعلنوا ضم مصر إلى أملاك التاج . لكن اعتراضات قامت فى هذا الصدد : أولها وأقواها أن الحلفاء الذين تحارب إنجلترا وإياهم كتفاً لكتف يؤولون هذا التصرف من جانبها بأنها أرادت أن تقرر لنفسها غنائم الحرب قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن تتفق وإياهم على شىء فى هذا الصدد . ثم إن إعلان الضم ربما كان من شأنه أن يهيج الشعور فى مصر إلى

حد ربما كانت عواقبه غير مأمونة . على ذلك فكرت حكومة لندن فى إعلان الحماية على مصر ، وانتهت ، بعد شىء من التردد ، إلى اختيار السلطان حسين كامل سلطاناً فى القاهرة بدل ابن أخيه عباس الذى قررت إنجلترا أنه انضم انضماماً ظاهراً إلى أعدائها ، فلا يمكن أن يعتلى عرشاً تحت حمايتها . ودارت محادثات طويلة فى هذا الشأن بين الوكالة البريطانية والحكومة المصرية انتهت إلى قبول رشدى باشا وزملائه الأمر الواقع والبقاء فى مناصبهم كوزراء تحت نظام الحماية ، آملين متى انتهت الحرب أن تجد إنجلترا فى تصرفهم ما يجعلهم منها بمكان يستطيعون معه الوصول إلى خير نظام سياسى لبلاد ألقت المقادير على عواتقهم أعباء مصيرها فى ظرف دقيق لم يكونوا يتوقعونه . وظلت حكومة رشدى باشا ، وفيها ثروت باشا وزيراً للحقانية ، حتى وضعت الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، قائمة بكل ما أخذت به نفسها من ولاء للحلفاء وحرص على مصالح مصر ورجاء فى ألا يسوء مركزها بسبب ظروف احتملوها ولم تكن لهم يد فيها .

ولما كانت الشروط الأربعة عشر التى وضعها الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة معتبراً إياها أساساً للهدنة والصلح قد أعلنت قبل الهدنة بأشهر مشتملة على شرط يجعل للشعوب حق تقرير مصيرها ، فقد انتهز جماعة من أعضاء حزب الأمة – نذكر من بينهم على باشا شعراوى ، ولطفى بك السيد ، ومحمد باشا محمود ، وعبد العزيز باشا فهمى – هذه الفرصة ففكروا فى تكوين هيئة تطالب لمصر بحقها فى تقرير مصيرها . وأفضى هؤلاء بفكرتهم إلى حكومة رشدى باشا فوجدوا منها ارتياحاً لها . ففاتحوا سعد زغلول باشا على أن يكون رئيساً لهيئتهم باعتباره وكيل الجمعية التشريعية المنتخب كما فاتحوا عبد اللطيف المكباتى بك ومحمد على باشا من أعضاء الحزب الوطنى . وعلى ذلك تألفت هيئة أطلقت على نفسها اسم الوفد المصرى ووضعت صيغة توكيل من الأمة لها بالسعى لاستقلال مصر أيما

وجدت إليه سبيلاً . ووزعت هذه التوكيلات فى طول مصر وعرضها بعلم حكومة رشدى باشا . وكان من رأى السير رجنالد ونجت مندوب إنجلترا السامى فى مصر يومئذ أن يترك لهذا الوفد حرية السفر إلى إنجلترا أو إلى حيث شاء من ممالك أوربا ، وأن يسافر حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا ليعبرا فى لندن عن مطالب المصريين . ولو أن نصيحة السير ونجت نجحت يومئذ لتغير ، على الأغلب وجه المسألة المصرية ولسارت فى طريق غير التى سارت فيها بسبب رفض إنجلترا للوفد وللوزيرين المصريين بالسفر .

ورفضت حكومة لندن سفر أحد من الوزراء المصريين وسفر رجال الوفد إلى إنجلترا أو إلى مؤتمر السلام . ولم تنجح محاولات الحكومة المصرية والمندوب السامى البريطانى فى تحويل الحكومة الإنجليزية عن رأيها . هنالك استقال رشدى باشا وعدلى باشا واستقالت وزارتهما فى ٦ فبراير سنة ١٩١٩ . ولقد خيل إلى المراجع العليا يومئذ أنهم واجدون فى ثروت باشا ، وله من الكفاية والمقدرة ما له ، الرجل الذى يستطيع التغلب على الموقف بإقناع رجال الوفد كى يعدلوا عن خطتهم ، كما خيل إليهم أن ثروت باشا لن يرفض رياسة الوزارة حين تعرض عليه وما يزال يومئذ فى الخامسة والأربعين من عمره . لكن تقديرهم أخطأ ، فقد كان ثروت باشا مشتركاً بقلبه وبعقله مع الحركة الوطنية ومع زميليه عدلى ورشدى . ثم هو كان يقدر التبعة الكبرى التى احتملها مع زميليه بقبول البقاء فى الوزارة بعد إعلان إنجلترا حمايتها على مصر . فإذا كانت المقادير قد أتاحت النصر لإنجلترا ، وكانت مصر ، والحكومة المصرية بنوع خاص ، عاملاً من عوامل هذا النصر اعترف به الفيكونت مارشال اللنبى قائد جيوش الحلفاء فى الشرق ، فإن من خطل الرأى وسوء التدبير الذى لا يليق بسياسى حنكته تجارب الحرب ما حنكت ثروت باشا أن يرضى العاجلة من رياسة الوزارة بديلاً لما كان يرى حقاً لأمته أن تبلغه من نظام يتفق مع

مكانتها ويعادل بعض الجهود التى بذلتها أثناء الحرب الكبرى . وإذا كانت بعض دول أوربا التى خاضت غمار الحرب إلى جانب الحلفاء قد حصلت على وعود بالتوسع وضمان الاستقلال ، وإذا كانت بلاد العرب قد اعتبر لها استقلالها ، فلن يكون ثروت هو الذى يقبل وزارة يعتبر قبولها حيلولة دون مصر وما تطمع فيه من استقلال وعزة مكان بين دول العالم .

ورفض أن يشكل الوزارة فى هذا الظرف الدقيق ، مقدراً أن سيحسب عليه رفضه عند ذوى الكلمة والمراجع العليا فى مصر . بل لقد أبلغ يومئذ أن رفضه هذا يحول بينه وبين الوزارة بقية حياته ، فلم يعبأ بما أبلغ إليه وأصر على الوقوف إلى جانب أمته إصراراً دعا الوفد ، وعلى رأسه سعد زغلول باشا ، كى يسعى بكامل هيئته إلى دار ثروت باشا مقدماً إليه التهنئة على إبائه الوطنى وآيات الشكر على تضامنه مع الوفد فى حركته القومية . وكانت كلمات سعد باشا له أن تضامنه مع الحركة القومية العامة يكسب الوفد قوة والبلاد أملا فى النجاح . وترتب على هذه الزيارة لبيت ثروت باشا أن أنذرت السلطة العسكرية الوفد بأنهم بحركاتهم يعرقلون سير الحكومة . على أن هذا الإنذار لم يزد على أن ثبت ثروت باشا فى إصراره على رفض تشكيل الوزارة وعلى وضع حجر الأساس برفضه هذا لنجاح القضية القومية .

من ذلك التاريخ بدأ ثروت باشا نشاطه السياسى فى السعى لاستقلال بلاده بالطرق المشروعة التى أشار إليها فى مرافعته فى قضية قاتل بطرس باشا غالى . ومن ذلك التاريخ أخلص لغايته كل نفسه وكل جهده وازدرى إلى جانبها كل ما يطمع فيه غيره . على أن ثقته المطلقة بنفسه كانت تدعوه إلى أن يتبع فى سياسته خطة غير التى يتبعها كثيرون من الساسة غيره . فهو لم يكن يبدأ بأن يعلن للناس مطالبه مستعيناً فى تحقيقها بالقوة أو بالواقعية أو بالمساومة . بل كان يحدد فى نفسه غاياته

ويعتمد قبل كل شيء على البحث المقترن بالحكمة والمنطق وحكم العقل . وقوته ومهارته وصبره كانت تكفل له النجاح دائماً فى بلوغ ما يريده . وكان يكفل له هذا النجاح كذلك ما تعوده من الاضطلاع بالتبعات وحمل المسئوليات منذ أول شبابه وحين كان سكرتيراً لمستشار الحقانية الذى ألقى بين يديه بواسع سلطته . بهذه القوى عنده استعان حين جاءت لجنة ملنر سنة ١٩٢٠ لتنظر فى وضع نظام لمصر تحت الحماية البريطانية فاشترك مع أصدقائه السياسيين ، رشدى باشا وعدلى باشا وإسماعيل صدقى باشا ، فى إقناع اللجنة بضرورة التفاهم مع هيئة الوفد المصرى فى أمر القضية المصرية . وكان ثروت باشا من بين زملائه هو الذى ينقل آراء اللجنة ووجهات نظرها إلى رجال الوفد بباريس كى يمهد لهم الوقوف على آرائها وخططها ، حتى إذا اتصلوا بها كان اتصالهم مثمراً . فلما انتهت اللجنة من محادثاتها مع الوفد وأعلن مشروع ملنر فى صيف ١٩٢٠ ثم قدمت اللجنة تقريرها وأعلنت الحكومة البريطانية اعترافها بأن الحماية علاقة غير مرضية بين مصر وإنجلترا وطلبت إلى عظمة سلطان مصر إيفاد هيئة تتفاوض مع الحكومة البريطانية فى استبدالها بعلاقة أوجب للرضا ، شكل عدلى باشا وزارته الأولى فى مارس سنة ١٩٢٠ وكان ثروت باشا وزير الداخلية فيها .

وعاد سعد زغلول باشا من باريس فى أوائل أبريل ودارت محادثات بينه وبين الوزارة انتهت إلى اختلافه وإياها فى طريقة تشكيل الوفد الذى يقوم بالمفاوضة وإعلانه الحرب عليها فى خطبة ألقاها فى ٢٨ أبريل بحى شبرا . ثم سافر عدلى باشا على رأس الوفد الرسمى الذى تألف بأمر عظمة السلطان ليقوم بالمفاوضة ، واستصحب معه من أعضاء وزارته حسين رشدى باشا وإسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا ، كما استصحب غيرهم مفاوضين ومستشارين . وقام ثروت باشا فى مصر رئيساً للوزارة بالنيابة . وكوزير للداخلية مسئول عن حفظ الأمن والنظام

اللذين كانا مهددين بحركات أنصار سعد باشا زغلول لم يتردد فى احتمال التبعات التى رآها واجبة فى هذا الظرف ، دالاً بذلك على جرأة وحزم لا يعرفان تردداً ولا هوادة . وبرغم الجهود التى بذلها عدلى باشا والوفد الذى كان معه فى سبيل إقناع الإنجليز بوجهة نظر مصر ، وبرغم تناولهم كل مسألة من المسائل الخلافية بين الدولتين ابتغاء الوصول إلى حلها حلاً يقنعها ، فقد جنى الخلاف بين سعد باشا والحكومة على هذه المفاوضات فلم تؤت الثمرة التى كانت مرجوة منها ، ولذلك قطع عدلى باشا المفاوضة بعد أن أعلن إليه لورد كرزون وزير الخارجية البريطانية مشروع حكومته . واستقال عدلى باشا على أثر وصوله . ونشرت السلطات البريطانية المشروع المذكور مرفقاً بمذكرة مهينة لمصر أشد الإهانة .

تحرج الموقف السياسى بين مصر وإنجلترا على أثر هذه الاستقالة . ثم زاده حرجاً أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على سعد زغلول باشا وخمسة من أنصاره وقررت نفيهم عن مصر . هنالك عادت البلاد كلها كلمة واحدة تنادى بعدم التعاون مع إنجلترا وتدعو كل مصرى ألا يقبل تأليف وزارة تضطلع بمسئولية الأمر فى مصر ، حتى تظل إنجلترا وأحكامها العرفية مسؤلة مباشرة عن كل ما يقع فيها .

فى هذا الظرف ظهرت مهارة ثروت باشا السياسية وظهر اقتداره . إن المشروع الذى أعلنته إنجلترا ولم تقبله مصر يقضى باعتراف إنجلترا باستقلال مصر استقلالاً مقيداً فى مسائل معينة . وهذه القيود هى التى لا ترضاها مصر . فإذا أرجأنا النظر فى هذه القيود إلى ظرف مقبل أكثر ملاءمة من ظرف المفاوضات وما كان يشوبه من خلاف بين سعد باشا زغلول والحكومة المصرية وأعلنت إنجلترا من جانبها التخلى لمصر عما ارتضت أن تتخلى عنه فى أثناء مفاوضات عدلى باشا ووفده ، كانت هذه خطوة جديدة من جانب إنجلترا تدل بها على حسن نيتها بإزاء مصر وتزيل الحرج الذى أدى إليه كتابها المرفق به المشروع ، ثم لا تكون قد خسرت شيئاً لأنها إنما

تتنزل عما كانت معتزمة من قبل التنزل عنه . على أنه حين بدأ محادثاته مع معتمد إنجلترا للوصول إلى هذه الغاية لم يبدأها بطلب إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، لما كان يعلمه من أن هذا الطلب يلاقى من جانب حكومة لندن بالرفض ، بل تقدم بطلبات لا يبدو أول الأمر أن لها بوجود الحماية البريطانية لمصر أو برفعها اتصالاً . ولم يكن بد أمام العقل من قبول إنجلترا هذه الطلبات . وبعد قبولها وتحديد المسائل التى تتعلق لمفاوضات حرة مستقبلة بين مصر وإنجلترا ، وصل ثروت باشا من بحثه إلى نقطة تبين معها لممثل إنجلترا نفسه أن بقاء الحماية الإنجليزية مفروضة على مصر لم يبق له أية فائدة لإنجلترا نفسها . وحكم العقل يقضى بأن التشبث بأمر لا فائدة من ورائه سخف لا يليق بذوى الفطنة السياسية . وقد بلغ من اقتناع لورد اللنبى معتمد إنجلترا واقتناع المستشارين الإنجليز فى الوزارات المصرية برأى ثروت باشا ، أن هددوا جميعاً بالاستقالة إذا وقفت لندن فلم تجب مطالبهم . وعجبت حكومة لندن لهذا الموقف فاستدعت معتمدها ومستشاريه فذهبوا إليها ، ولم يكن إلا أيام حتى أقنعت حجج ثروت الحكومة الإنجليزية أيضاً . وعاد لورد اللنبى فى يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فأعلن فى مصر تصريحاً من جانب إنجلترا بأنها تعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وتنهى لذلك حمايتها عليها محتفظة لمفاوضات مستقبلة بمسائل أربع : الدفاع عن مصر ، وحماية مواصلات الإمبراطورية ، وحماية الأجانب والأقليات ، ومسألة السودان . وعلى أثر ذلك أجاب ثروت باشا دعوة جلالة الملك فشكل وزارته الأولى فى أول مارس سنة ١٩٢٢ .

على أن هذا العمل العظيم الذى قام به ثروت باشا من حمل إنجلترا على الاعتراف باستقلال مصر كان سبباً لأن تدبر ضده فى الخفاء مؤامرة لاغتيال حياته . وقد دبر هذا الاغتيال قبل إعلان التصريح بيومين . على أن إدارة الأمن العام علمت بالمؤامرة وأحبطتها ، بأن أبلغت ثروت باشا الخبر وتفاصيله ، وأن المؤتمرين

يكمنون له عند كوبرى الأعمى ، حتى إذا مر فى (أوتوبيله) ذاهباً إلى نادى محمد على فتكوا به . وقد طلب ذلك اليوم إلى مقابلة عظمة السلطان فى عابدين فى الوقت الذى كانت المؤامرة فيه تريد إتمام جريمتها . فدعا إليه صديقه وزميله فى محادثات الإنجليز بشأن الاعتراف باستقلال مصر حضره صاحب المعالى إسماعيل صدقى باشا وطلب إليه أن ينوب عنه فى مقابلة جلالة الملك على أن يركب سيارة بالأجرة . وكذلك نجا ثروت وقبض على المتآمرين . ومن يدرى ماذا كان يصيب مصر لو أن الجناية تمت على ما يشتهى المدبرون ؟

وإعلان إنجلترا اعترافها بمصر دولة ذات سيادة بفضل مجهودات ثروت باشا السلمية ومقدرته على الاستفادة من الظروف بتقديره قوة بلاده ومطالب إنجلترا — هذا الإعلان رفع مقامه فجعله سياسيًّا فذًّا فى نظر العالم بأسره ، وجعل أبناء أمته يتطلعون إليه معجبين به وبمهارته . على أنهم انقسموا مرة أخرى ، لا فى قدرهم المجهود لذاته ، ولكن فى الخطة السياسية ، أو بالأحرى فى الخطة الحزبية التى يسلكونها بإزاء التصريح بالاستقلال وبإزاء الرجل الذى فاز به . أما الطوائف الحكيمة التى تقدر الأشياء بقيمتها الحقيقية فاعتبرت التصريح خطوة جدية فى سبيل استكمال الاستقلال وعاهدت ثروت باشا على مؤازرته فى خطته . ووقفت طوائف أخرى حريصة من ناحية على ألا يمس التصريح أذى ، عاملة فى نفس الوقت على مناوأة ثروت باشا وحكومته مناوأة دفعتهم للطعن على التصريح والانتقاص من قيمته . وقد كان من مظاهر هذا الموقف أن أمسك هؤلاء عن إبداء رأيهم فى التصريح حين أعلن البرلمان الإنجليزى أنه يريد بحثه فى جلسة حدد لها يوم ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ ، وظلوا فى وجل أى وجل ألا تنال حكومة لويد جورج ثقة البرلمان بسبب إعلانها إياه . فلما فازت هذه الحكومة البريطانية بالثقة وأعلن جلالة ملك مصر استقلالها فى ١٥ مارس واطمأن هؤلاء المتحفزون إلى أنه أصبح حقًّا لمصر

لا ينازعها فيه أحد بدءوا حملتهم عليه حملة منظمة غايتها الحملة على حكومة ثروت باشا . على أن ثروت لم يتردد فى هذا الظرف لحظة ، بل ظهر بكل ما يجب من قوة وحزم وبدأ ينفذ ما ينطوى عليه التصريح من حقوق مصر بإنشاء وزارة الخارجية التى كانت ألغيت منذ أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وبإقالة المستشارين البريطانيين من مختلف الوزارات عدا وزارتى الحقانية والمالية ، وبتشكيل لجنة من خيرة رجال مصر لتضع للبلاد نظاماً دستورياً على أحدث المبادئ العصرية ، وبالضرب على يد الفوضى فى كل صورها ومظاهرها ، وإظهار الحكومة المصرية الأهلية بمظهر الاحترام الواجب لها .

وليوطد فى النفوس الإيمان بحق مصر دعا فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ ، لمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك ، إلى حفلة كبيرة بفندق الكونتنتال حيث ألقى خطاباً يبين فيه مزايا العمل الجليل الذى قام به ويرسم فيه الخطة الواجب اتباعها لاستكمال الاستقلال . وقد يبدو عجيباً أن تكون الفكرة السائدة فى هذا الخطاب هى بعينها الفكرة التى وردت فى مرافعة عبد الخالق ثروت النائب العام فى قضية الوردانى ، والتى أوردت نصها من قبل . فقد جاء فى هذا الخطاب السياسى ما نصه :

« لم يبق علينا إلا أن نقنع إنجلترا أن ليس بها حاجة إلى التمسك بالضمانات التى تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمى خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعى . وليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب إليه أكثر من تعلقنا بأهداب السكينة والتزامنا الهدوء وأخذنا بأسباب النظام . فإن حجتهم الكبرى فيما يبدونه من رغبة فى الضمانات هى شدة حذرهم على مصالحهم وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم إلى تركها لعهدتنا . فإذا قضينا على عوامل الفتنة والاضطراب وجعلنا التزام السكينة رائدنا فإننا نثلم هذا السلاح بأيديهم وندفع حججهم علينا .

ولا مشاحة فى أن كل من يعمل على تعكير السلام أو إثارة الاضطراب مجرم فى حق وطنه عامل على هدم كيانه» .

ثم جاء فيه أيضاً :

«إننى لا أكره المعارضة ، بل إذا انعدمت هذه المعارضة فإننى أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة فى الوصول إلى الحقيقة وتمحيص كل أمر على أكمل وجه . ولكنى أريد المعارضة الشريفة التى تترفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل إلى اختلاق الأكاذيب . إننى أريد الخصومة الشريفة التى لا تنظر إلا لمصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل أمر لذاته مجرداً عن كل اعتبار شخصى» .

وهذه الخطة التى رسمها ثروت باشا فى خطاب يوم عيد ميلاد جلالة الملك هى التى كررها من بعد فى خطب ألقاها فى افتتاح لجنة الدستور ولوفود ذهبت إليه فى شئون سياسية مختلفة . ولقد كان لهذه الخطة الحكيمة أن تؤتى ثمرها كاملاً بفضل مهارة ثروت وحنكته وقوة منطقه لو أن مناوأته لم تنتقل من الميدان الوطنى الصحيح إلى ميادين أخرى . فبينا هو يعمل جاداً فى تطبيق مزايا الاستقلال التى حصلت عليه مصر مقيداً بالتحفظات التى أشرنا إليها ، وقعت على جماعة من البريطانيين ، ضباطاً وجنوداً ومدنيين ، سلسلة اعتداءات شنيعة أودت بحياة ثمانية عشر منهم على التعاقب . على أن هذه الاعتداءات وحدها ما كانت لتجنى على خطته لو لم يقترن بها ما جعل مركز وزارته حرجاً غاية الحرج بعد زمن وجيز من بدء لجنة الدستور عملها . فقد عمدت هذه اللجنة إلى وضع مبادىء تتفق مع المبادئ العصرية التى كلفت بوضع الدستور المصرى على أساسها ، وشاركها ثروت باشا الرأى فى مبادئها . وفى رأى البعض أن مصر بلاد شرقية يجب أن تسود فيها ومائل السياسة الشرقية وخططها . لذلك ألفى ثروت باشا نفسه فى موقف لا يستطيع معه القيام بأعباء الحكم على الوجه الذى يرضاه ضميره . وبرغم المحاولات الكثيرة التى بذلها

لتهدئة العواصف الكمينة فى ثورتها حوله ، فإنه شعر بدقة المركز فجعل يستعجل لجنة الدستور حتى وضعت مشروعه وتعجلت بعد ذلك فى وضع مشروع لقانون الانتخاب . ورفعت اللجنة مشروعها إليه فى جلسة تاريخية ألقى فيها كلمة ذكر فى أثنائها أنه سيعمل على صدور الدستور كما وضع مشروعه ، وكان ذلك فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ . ولما كان جماعة أصدقائه السياسيين يؤلفون فى هذا الوقت حزب الأحرار الدستوريين ، انتظر من معونتهم ما يكفل اقتداره على السير بسياسته خطوة أو خطوات أخرى . لكن الحزب ما كاد يتألف فى ٣٠ أكتوبر ثم ما كاد يمضى أسبوعان على تأليفه حتى أطلق جماعة من الشبان الرصاص على باب داره دار جريدة « السياسة » فأصابوا حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى من أعضاء مجلس إدارته . وأبدت الصحف المناوئة لهذا الحزب أن الرجلين ذهبا ضحية خطأ يؤسف عليه لأنهما لم يكونا مقصودين بالذات .

وكثرت الأقاويل حول المصادر الحقيقية التى تشجع هذه الجرائم ، ورأت وزارة ثروت باشا بعد أن رفعت الدستور إلى جلالة الملك أنها خطت بالبلاد خطوات يمكن الوقوف عندها فترة ريثما تطمئن النفوس وتهدأ أسباب الجريمة . وعلى ذلك رفع ثروت باشا استقالته فى يوم ٣٠ نوفمبر منوهاً فيها بما أتمت وزارته وبما مهدت له من صدور الدستور وغير الدستور مما نص فى تصريح ٢٨ فبراير على وجوب صدوره .

واعتكف ثروت منتظراً ظرفاً خيراً من الظرف الذى كان فيه فى الحكم ليعود إلى الميدان فيعمل لإتمام ما بدأه بتصريح الاستقلال . على أنه فى اعتكافه لم يتوان يوماً عن بذل كل ما لديه من نفوذ كى يصدر الدستور . فلما صدر فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ أيام قيام وزارة يحيى باشا إبراهيم وانتظرت البلاد الانتخابات ، أخذ يتوقع فى ظروفها ما يطوع له العود لتنفيذ سياسته . وسياسته . كما رأيت . تقوم على

الإخلاص الصحيح والعزم الوطيد على إتمام اتفاق بين إنجلترا ومصر تحل به المسائل المعلقة فى التصريح . وعسير الوصول إلى هذا وفى البلد من آثار الانقسام ما يخشى أن يجنى على أية مفاوضات جديدة جناية الانقسام على المفاوضات التى تولاها عدلى باشا يكن سنة ١٩٢١ . فلما عاد سعد زغلول باشا من منفاه فكر ثروت فى إمكان التفاهم معه اجتناباً لكل انقسام مستقبل . لكن علاقات الرجلين كانت متوترة منذ سنة ١٩٢١ أشد التوتر . وقد ألقى المحيطون بسعد فى روعة أن ثروت هو الذى نصح بنفيه . ثم إن سعداً كان قد طعن على ثروت أشد المطاعن وأقساها . بل لقد ذهب فى الطعن عليه إلى اتهامه فى إخلاصه لوطنه . فكيف يستطيع ثروت أن ينسى هذا كله وأن يتقدم إلى ناحية سعد خطوة من الخطى ؟ على أنه رأى كرامة الوطن فوق كرامة أى فرد من أبنائه ، فبعث إلى سعد بخطاب يذكر له فيه أنه فى حرصه على مصلحة الوطن يريد أن يحتكم وإياه فى أسباب الخلاف بينهما إلى الأمراء وذوى الرأى والمكانة فى البلاد . وكان يرجو من احتكامه أن تزول أسباب الانقسام وأن تعود وحدة الأمة ليعود هو ، معتمداً على هذه الوحدة ، إلى استكمال استقلال بلاده بإتمام الاتفاق بين مصر وإنجلترا لكن مسعاه هذا لم ينجح أن رفض سعد باشا التحكيم . وبقى ثروت باشا بعد ذلك بين كتبه ومكتبته وفى عمله المتصل بالجمعية الخيرية الإسلامية وبالجامعة المصرية وبغيرهما من الهيئات التى كانت أبداً فى حاجة إلى ثاقب رأيه . فلما كانت سنة ١٩٢٥ أدت الظروف السياسية إلى التفاهم والائتلاف بين سعد زغلول باشا وخصومه السياسيين . ذلك أن سعد باشا حصل حزبه على الأغلبية الكبرى فى انتخابات سنة ١٩٢٤ فتولى الوزارة وظل فيها حتى اعتدت جماعة ينسب بعضهم إلى حزبه على حياة السيرلى ستاك باشا حاكم السودان العام . فأبلغت إنجلترا حكومته إنذاراً قاسياً اضطرت بعده إلى التخلى عن المناصب . وخلفه أحمد زيور باشا فى رياسة الحكومة ، فاستعان بالأحرار

الدستوريين بعد أن حل مجلس النواب وأجرى انتخابات أسفرت عن أغلبية لحزب سعد باشا كذلك . فحل المجلس الجديد أيضاً وأجلت الانتخابات إلى أجل غير مسمى . على أن الحل الأول وهذا التأجيل الثانى خلق فى البلاد حزباً جديداً كان أعضاؤه كثيرى التردد على القصر الملكى وكانت رغبتهم عن الدستور والحياة النيابية أكثر من رغبتهم فيها . وخيل لأعضاء هذا الحزب يوماً أنهم يستطيعون القيام وحدهم فأقيل رئيس حزب الأحرار الدستوريين من الوزارة واستقال زميلاه الوزيران اللذان كانا من أعضاء حزبه تضامناً وإياه ، وسنحت بذلك فرصة التفاهم والائتلاف مع حزب سعد زغلول باشا ضد الخصم المشترك والعمل معاً لعود الحياة النيابية . وكذلك قربت الظروف بين ثروت باشا وسعد باشا ، وكان يخيل للكثيرين أنهما لن يلتقيا . وجرت الانتخابات وألف عدلى باشا يكن الوزارة الائتلافية الأولى وجلس سعد باشا فى رياسة مجلس النواب . وفى أوائل أبريل سنة ١٩٢٧ استقال عدلى باشا فألف ثروت باشا وزارته الثانية وبقى سعد باشا فى منصبه رئيساً للنواب . وكانت إنجلترا يومئذ قد أرادت ، متأثرة بآراء مندوبها السامى اللورد جورج لويد ، التحرش بالحكومة المصرية ، فخلقت ما سمى أزمة الجيش وبعثت بأساطيلها إلى الإسكندرية ولم يعرف أحد قط مطالبها على وجه التحديد . فاستطاع ثروت باشا بمهارته وكياسته ، أن يقضى على هذه الأزمة من غير أن تصل إنجلترا من مطالبها إلى أكثر من منح أحد الموظفين الإنجليز بوزارة الحربية المصرية رتبة الباشوية .

حدث بعد ذلك أن سافر جلالة الملك فؤاد إلى أوربا مدعوّاً إلى زيارات رسمية بإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا وبعد شىء من التردد استصحب جلالته رئيس وزارته ثروت باشا فى رحلته . فانتهز ثروت فرصة وجوده بإنجلترا وفاتح وزير خارجيتها السير أوستن تشمبرلن فى أمر أزمة الجيش وتحدث إليه فيما إذا كان مستطاعاً

الوصول إلى حل المسائل المعلقة بين الدولتين اتقاء أزمات أخرى . وقد انتهت هذه المحادثات إلى مشروع لم يقبل فى مصر ولكنه مهد السبيل الصحيح إلى الاتفاق النهائى . وربما كان ممكناً تعديله بما يمهد لقبوله ، لو أن سعد باشا زغلول بقى حياً إلى حين انتهاء ثروت من محادثاته . لكنه توفى فى أثنائها ، فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ولم يخلفه من حنكته التجارب السياسية ما حنكت هذا الزعيم . وطلب إلى ثروت باشا أن يحل مجلس النواب وأن يجرى انتخابات يعرض فيها المشروع الذى وصل إليه على البلاد ، فأبى لأنه رأى أحزاب مصر كلها لا تقبل المشروع ، ولأنه من ناحية أخرى خشى إذا حل المجلس ألا يعود . واستقال من الوزارة ونشر يوم استقالته كتاباً أخضر عن مفاوضاته . ويدل هذا الكتاب والمذكرات التى اشتمل عليها على ضخامة المجهود الذى بذله ثروت فى أثناء قيامه بالمفاوضات منفرداً ضخامة لم يعرف لها حتى اليوم فى حياة سياسى مصرى نظير . ويدل كذلك على مقدرة وذكاء وكفاية وتضلع بالسياسة العالمية قل أن يكون لها مثيل . ثم يدل على صحة ما رواه عنه السير أوستن تشمبرلن لأحد أصدقائه إذ قال : « أتاح لى اتصالى فى جمعية الأمم بأكثر وزراء الخارجية فى الدول المختلفة أن أقدرهم جميعاً . وما أحسب واحداً منهم يفوق ثروت مهارة وقوة حجة وحسن بيان » . وفى الكتاب الأخضر المذكور ، إلى جانب هذا كله ، اتجاه جديد فى سياسة ثروت يرمى إلى ربط الاتفاق بين مصر وإنجلترا بقضية السلام فى العالم ، ويجعل لذلك من الرجل سياسياً عالمياً لا سياسياً قومياً وكفى . فقد أبدى وزير الخارجية البريطانية من التشدد فى بعض الأمور ما رأى ثروت باشا معه أن المناقشة أصبحت غير مجدية وأن مقامه فى لندرة للوصول إلى الغاية التى ينشدها لم يبق له محل . وكان أمامه إذ ذاك أن يعلن ذلك إلى قومه فى عبارة قوية أخاذة ، وأن يعود محاطاً بهالة من الجلال والإعجاب . لكن ذلك ليس يتفق مع طريقته فى التفكير ولا هو يقرب الغاية التى

ينشدها ولا يؤيد السلام الذى يسعى لتاييده . لذلك لجأ إلى الحكمة ينادى داعيها فى نفس الوزير الإنجليزى ، حتى إذا لم يجب هذا الداعى وأصر على تشدده كان مسئولاً أمام العالم كله وكان مخالفاً فى خطته مع مصر كمفتاح بلاد الشرق الخطة التى أتبعتها الدول الأوربية فيما بينها لتأييد السلام . فبعث بخطاب فيه من البراعة السياسية ، ومن الحرص على كرامته وكرامة بلاده ، ومن تحميل مناظره تبعة عدم النجاح ، ما يشهد به نصه إذ قال :

«عزيزى صاحب السعادة

«من أطيب الأشياء إلى نفسى أن أعرب لسعادتكم ، قبل مغادرتى لندرة ، عن عظيم شكرى لما لقيته لديكم من حسن الاستقبال . وإن أنس لا أنس نزعة الود التى ما برحتم تصدرون عنها فى محادثاتنا ولا ما أبديتموه على الدوام من صادق الرغبة فى التماس أسباب التوفيق بين البلدين .

«ولقد كان يسعدنى أن أرى مساعيكم المجيدة فى تثبيت أركان الصداقة بين القطرين تكلل بالنجاح ، كما أنه يؤلمنى أن يخفق كل ما بذل من الجهود فى هذا السبيل ، تلك الجهود التى لم تجعل ، حتى اللحظة الأخيرة ، مجالاً للشك فى حسن ختام محادثاتنا فى هذا الشأن .

«ولا أزال أرجو ، إذ أنادى منكم داعى الحكمة والتجىء إلى صادق شعوركم وصحيح إنصافكم ، أن تدركوا الغاية التى تعملون لها ، وأن تضموا إلى إكليل «لوكارنو» إكليل الاتفاق بين إنجلترا ومصر»

ولم تضعف استقالته من الوزارة من إيمانه بإمكان الاتفاق بين مصر وإنجلترا . بل كان يرجو فى ظروف سياسية جديدة ما يمكنه من العود لمعالجة المفاوضات من جديد مع عظيم الرجاء فى نجاحها . لكن المجهود العظيم الذى أنفقه والمقابلة السيئة المنطوية على إنكار الجميل التى قوبل بها ، ومحاولته نسيان ذلك بالإكباب على

العمل فى مجلس الشيوخ كعضو من أعضائه ، كل ذلك هز أعصابه وأضعف قوته . فسافر مستشفياً فى صيف سنة ١٩٢٨ وذهب إلى سان مورتز ثم عاد منها إلى باريس فى ١٨ سبتمبر . ولم يكن يدرى أن أجله يتربص به فيها ليختم كتاب حياته فى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢٢ سبتمبر ، أى بعد وصوله إليها بخمسة أيام .

وبكت مصر ثروت ، وتقدمت دول العالم كلها تعزيها فيه ، وتناولت الصحافة فى مختلف الأمم أعماله فشادت بها ورفعتها إلى المكان الجديرة به . . بكته مصر مُقدّرة جميل صنيعه ، وعظيم نزاهته ، وعلو همته ، آسفة على مافرط منها أيام حياته فى حقه ، مؤمنة بأن سيبقى اسم ثروت علماً فى تاريخ مصر على الاقتدار السياسى المنقطع النظير .